۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ)أي: جميع ما دب على وجه الأرض من آدمي أو حيوان بري أو بحري

(إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا)فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم و أقواتهم فرزقها على الله.

(وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا)أي:–المكان الذي تقيم فيه و تستقر فيه و تأوي إليه-فِي الرَّحِمِ

(وَمُسۡتَوۡدَعَهَا)المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها و مجيئها و عوارض أحوالها–فِي الصُّلْبِ كَالَّتِي فِي الْأَنْعَامِ

(كُلّٞ)من تفاصيل أحوالها

(فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ)اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة و التي تقع في السماوات و الأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله و جرى بها قلمه و نفذت فيها مشيئته و وسعها رزقه فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها و أحاط علما بذواتها و صفاتها 6

يخبر تعالى أنه (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ)أولها يوم الأحد و آخرها يوم الجمعة

(و)حين خلق السماوات و الأرض

(وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ)فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات و الأرض استوى عليه يدبر الأمور و يصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية و الأحكام الشرعية.

و لهذا قال:–(لِيَبۡلُوَكُمۡ)ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السماوات و الأرض بأمره و نهيه فينظر

(أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ)قال الفضيل بن عياض:–«أخلصه و أصوبه»قيل يا أبا على:«ما أخلصه و أصوبه »؟فقال:–

*إن العمل إذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل.

*و إذا كان صوابا و لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا.

و الخالص: أن يكون لوجه الله

و الصواب: أن يكون متبعا فيه الشرع و السنة

و هذا كما قال تعالى:–(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)

و قال تعالى(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

*فالله تعالى خلق الخلق لعبادته و معرفته بأسمائه و صفاته و أمرهم بذلك فمن انقاد و أدى ما أُمِرَ به فهو من المفلحين و من أعرض عن ذلك فأولئك هم الخاسرون

و لا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به و نهاهم.

و لهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء فقال:–

(وَلَئِن قُلۡتَ)لهؤلاء و أخبرتهم(إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ)

لم يصدقوك بل كذبوك أشد التكذيب و قدحوا فيما جئت به

(لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)ألا و هو الحق المبين 7

*هُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبَدَاءَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الرُّومِ:27]

(وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ)وقت مقدر فتباطأوه

(لَّيَقُولُنَّ)لقالوا من جهلهم و ظلمهم

موقف المشركين و المؤمنين من النعم و النقم و جزاؤهم8-11

(مَا يَحۡبِسُهُۥٓۚ)

يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلِفَتِ التَّكْذِيبَ وَ الشَّكَّ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِيصٌ عَنْهُ وَ لَا مَحِيدٌ.

*و مضمون هذا تكذيبهم به فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب فما أبعد هذا الاستدلال

(أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ)العذاب(لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ)فيتمكنون من النظر في أمرهم.

(وَحَاقَ)نزل(بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)من العذاب حيث تهاونوا به حتى جزموا بكذب من جاء به.

*أحمد 19876 عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ» قَالَ: قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. قَالَ:-«اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» .
قَالَ: قُلْنَا: قَدْ قَبِلْنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ؟
قَالَ: «كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ»
قَالَ: وَ أَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا.
قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا. قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي
*البخارى 7418 - عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:-
إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺإِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»
قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»
قَالُوا: قَبِلْنَا جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَ لِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ قَالَ:

«كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ» 8

يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم فقال:–

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً)كالصحة و الرزق و الأولاد و نحو ذلك

(ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ)

فإنه يستسلم لليأس و ينقاد للقنوط فلا يرجو ثواب الله و لا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيرا منها عليه 9

(وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ)رحمة من(بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ)أنه يفرح و يبطر و يظن أنه سيدوم له ذلك الخير

و يقول:–(لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ)ذهب الضيق(عَنِّيٓ)و زالت الشدائد

(إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ)لبَطِر بالنعم(فَخُورٌ)مبالغ فى الفخر و التعالى على الناس.

أى:فرح بما أوتى مما يوافق هوى نفسه فخور بنعم الله على عباد الله

و ذلك يحمله على الأشر و البطر و الإعجاب بالنفس و التكبر على الخلق و احتقارهم و ازدرائهم و أى عيب أشد من هذا؟!!

*و هذه طبيعة الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله و أخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده 10

(إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ)و هم الذين صَبَّرُوا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا و عند السراء فلم يبطروا

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)من واجبات و مستحبات.

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ)لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور.

(وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)و هو: الفوز بجنات النعيم التى فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين 11

يقول تعالى–مسليا لنبيه محمد ﷺعن تكذيب المكذبين–:–

(فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ)

أى: لا ينبغى هذا لمثلك أن قولهم يؤثر فيك و يصدك عما أنت عليه فتترك بعض ما يوحى إليك

ضيق صدر الرسولﷺ من عناد المشركين و توجيه الله للنبىﷺ

(وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ)و يضيق صدرك لتعنتهم

(أَن يَقُولُواْ)بقولهم:–(لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ)يصدقه فى رسالته

فإن هذا القول ناشئ من تعنت و ظلم و عناد و ضلال و جهل بمواقع الحجج و الأدلة فامض على أمرك

و لا تصدك هذه الأقوال الركيكة التى لا تصدر إلا من سفيه و لا يضق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟

أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحا يؤثر فيه و ينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟!

أم عليك حسابهم و مطالب بهدايتهم جبرا؟

*يقول تعالى مسليّا لرسوله الله ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَعَنَّتُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ -كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ-:{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا۟أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا} [الْفُرْقَانِ]

(إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ)فإنه ليس عليك إلا الإنذار بما أُوحى إليك.

(وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ)عليهم يحفظ أعمالهم و يجازيهم بها أتم الجزاء

و الله على كل شىء حفيظ يدَبِّر جميع شؤون خلقه12

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

(أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ)افترى محمد هذا القرآن؟

تحدى الله للمشركين و ايثارهم الدنيا على الآخرة و جزاؤهم 13-16

فأجابهم بقوله:-(قُلۡ)لهم

(فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

أنه قد افتراه فإنه لا فرق بينكم و بينه في الفصاحة و البلاغة و أنتم الأعداء حقا الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات 13

(فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ)على شيء من ذلكم

(فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ)من عند الله لقيام الدليل و المقتضى و انتفاء المعارض.

(وَأَن)و اعلموا (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ)هو وحده المستحق للألوهية و العبادة

(فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ)منقادون لألوهيته مستسلمون لعبوديته

و في هذه الآيات :-

1-إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين و لا قدح القادحين.

خصوصا إذا كان القدح لا مستند له و لا يقدح فيما دعا إليه و أنه لا يضيق صدره بل يطمئن بذلك ماضيا على أمره مقبلا على شأنه و أنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها.

*بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل و المطالب.

2-هذا القرآن معجز بنفسه لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله و لا بعشر سور من مثله

بل و لا بسورة من مثله لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك فلم يعارضوه لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

3-أن مما يطلب فيه العلم و لا يكفي غلبة الظن علم القرآن و علم التوحيد لقوله تعالى:-

(فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا)أى:كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا

(وَزِينَتَهَا)من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث.

قد صرف رغبته و سعيه و عمله فى هذه الأشياء و لم يجعل لدار القرار من إرادته شيئا فهذا لا يكون إلا كافرا

*لأنه لو كان مؤمنا لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا

*بل نفس إيمانه و ما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

و لكن هذا الشقى الذى كأنه خلق للدنيا وحدها

(نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ)نعطيهم ما قسم لهم فى أم الكتاب من ثواب الدنيا.

(وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ)ينقصون شيئا مما قُدِّرَ لهم و لكن هذا منتهى نعيمهم﴿١٥﴾

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ)خالدين فيها أبدا لا يفتَّر عنهم العذاب و قد حُرِمُوا جزيل الثواب.

(وَحَبِطَ)بطل و اضمحل

(مَا صَنَعُواْ فِيهَا)فى الدنيا

أى:ما عملوه مما يكيدون به الحق و أهله و ما عملوه من أعمال الخير التى لا أساس لها و لا وجود لشرطها و هو الإيمان.

(وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)و كان عملهم باطلا لأنه لم يكن لوجه الله.

*قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:-

إِنَّ أَهْلَ الرِّيَاءِ يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا يَقُولُ: -

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تهجدا بالليل .لا يَعْمَلُهُ إِلَّا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا يَقُولُ اللَّهُ:-

أُوَفِّيهِ الَّذِي الْتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثَابَةِ وَ حَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ الْتِمَاسَ الدُّنْيَا وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿١٦﴾

*يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺو من قام مقامه من ورثته القائمين بدينه و حججه الموقنين بذلك

و أنهم لا يوصف بهم غيرهم و لا يكون أحد مثلهم فقال:-

(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ)

(محمد ﷺ)بالوحى الذى أنزل الله فيه المسائل المهمة و دلائلها الظاهرة فتيقن تلك البينة.

أوصاف و جزاء المؤمنين و الكافرين 17-23

(وَيَتۡلُوهُ)أى:يتلو هذه البينة و البرهان برهان آخر(يتلوه:يتبعه)

(شَاهِدٞ مِّنۡهُ)القرآن-هو شاهد الفطرة المستقيمة و العقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه و علم بعقله حسنه فازداد بذلك إيمانا إلى إيمانه.

(وَمِن قَبۡلِهِۦ)ثم شاهد ثالث و هو:-(كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ)التوراة التى جعلها الله

(إِمَامٗا)للناس(وَرَحۡمَةًۚ)

لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق و يوافقه فيما جاء به من الحق.

أى:-أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان و قامت لديه أدلة اليقين كمن هو فى الظلمات و الجهالات ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله و لا عند عباد الله

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم

(يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ)بالقرآن حقيقة فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا و الآخرة.

(وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ)أى: القرآن

(مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ)سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق

(فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ)لا بد من وروده إليها

(فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ)أدنى شك(مِّنۡهُۚ)

*وَ مَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مُشْرِكِيهِمْ:-
أَهْلِ الْكِتَابِ وَ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ طَوَائِفَ بَنِى آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَ أَشْكَالِهِمْ وَ أَجْنَاسِهِمْ مِمَّنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الْأَنْعَامِ: 19]

وَ قَالَ{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الْأَعْرَافِ: 158]وَ قَالَ{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ}

وَ فِي مُسْلِمٍ153-عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ".

(إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ)

إما جهلا منهم و ضلالا و إما ظلما و عنادا و بغيا و إلا فمن كان قصده حسنا و فهمه مستقيما فلا بد أن يؤمن به لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

*كَمَا قَالَ{وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ}[يُوسُفَ: 103]

وَ قال{وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ} [الْأَنْعَامِ:116]

وَ قَالَ{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سَبَأ: 20] ﴿١٧﴾

*يخبر تعالى أنه لا أحد (وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ)و يدخل فى هذا :-

1-كل من كذب على الله بنسبة الشريك له 2-أو وصفه بما لا يليق بجلاله

3-أو الإخبار عنه بما لم يقل 4-أو ادعاء النبوة

أو غير ذلك من الكذب على الله فهؤلاء أعظم الناس ظلما

(أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ)ليجازيهم بظلمهم فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد

(وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ)الذين شهدوا عليهم بافترائهم و كذبهم:-

(هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ)

لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما لا يقبل التخفيف

*يُبَيِّنُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وَ فَضِيحَتَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّسُلِ وَ الْأَنْبِيَاءِ و سَائِرِ الْبَشَرِ وَ الْجَانِّ

*البخارى 4685 - عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ:-بَيْنَا ابْنُ عُمَرَ يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ:-

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - أَوْ قَالَ:-يَا ابْنَ عُمَرَ-سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّجْوَى؟

فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ - وَ قَالَ هِشَامٌ:

يَدْنُو الْمُؤْمِنُ-حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

يَقُولُ: أَعْرِفُ يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ

ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ وَ أَمَّا الآخَرُونَ-أَوِ الكُفَّارُ-فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الأَشْهَادِ:

{هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18] ﴿١٨﴾

ثم وصف ظلمهم فقال:-

(ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ)بأنفسهم

(عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)و هى سبيل الرسل التى دعوا الناس إليها و صدوا غيرهم عنها فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

(وَيَبۡغُونَهَا)أى:سبيل الله

(عِوَجًا)يجتهدون فى ميلها و تشيينها و تهجينها لتصير عند الناس غير مستقيمة فيحسنون الباطل و يقبحون الحق قبحهم الله

(وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ)﴿١٩﴾

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

(أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ)ليسوا فائتين الله لأنهم تحت قبضته و في سلطانه.

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ)

فيدفعون عنهم المكروه أو يحصلون لهم ما ينفعهم بل تقطعت بهم الأسباب.

(يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ)أى: يغلظ و يزداد لأنهم ضلوا بأنفسهم و أضلوا غيرهم.

(مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ)

أى: من بغضهم للحق و نفورهم عنه ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعا ينتفعون به

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

(وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ)أى ينظرون نظر عبرة و تفكر فيما ينفعهم و إنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون 20

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ)حيث فوتوها أعظم الثواب و استحقوا أشد العذاب

*خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا نَارًا حَامِيَةً فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}[الْإِسْرَاءِ: 97] .

(وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ)

اضمحل دينهم الذي يدعون إليه و يحسنونه و لم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك

*مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَ الْأَصْنَامِ فَلَمْ تُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا بَلْ ضَرَّتْهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأَحْقَافِ: 6] 21

(لَا جَرَمَ)أى حقا و صدقا

(أَنَّهُمْ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ)

حصر الخسار فيهم بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم و حرمانهم و ما يعانون من المشقة و العذاب نستجير بالله من حالهم22

و لما ذكر حال الأشقياء ذكر أوصاف السعداء و ما لهـم عند الله من الثواب فقال

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بقلوبهم أي: صدقوا و اعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين و قواعده.

(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)المشتملة على أعمال القلوب و الجوارح و أقوال اللسان.

(وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ)

أى:خضعوا له و استكانوا لعظمته و ذلوا لسلطانه و أنابوا إليه بمحبته و خوفه و رجائه و التضرع إليه.

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين جمعوا تلك الصفات

(أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا إلا أدركوه و لا خيرا إلا سبقوا إليه ﴿٢٣﴾

ضرب مثل للمؤمن و الكافر

(مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ)فريق الأشقياء و فريق السعداء.

(كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ)هؤلاء الأشقياء

*فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَ لَا يَعْرِفُهُ أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ الحجَج فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأَنْفَالِ: 23]

(وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ)مثل السعداء.

*وَ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَفَطِنٌ ذَكِيٌّ لَبِيبٌ بَصِيرٌ بِالْحَقِّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْبَاطِلِ فيتبعُ الْخَيْرَ وَ يَتْرُكُ الشَّرَّ سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ الشُّبْهَةِ فَلَا يَرُوج عَلَيْهِ بَاطِلٌ

(هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ)لا يستوون مثلا بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها و الأعمال التى تضركم فتتركونها﴿٢٤﴾

قصص الأنبياء 25-99

(وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا)أول المرسلين

قصة نوح 25-49

(إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ)يدعوهم إلى الله و ينهاهم عن الشرك فقال لهم:–

(إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)أى: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانا زال به الإشكال﴿٢٥﴾

(أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ)أى:أخلصوا العبادة لله وحده و اتركوا كل ما يعبد من دون الله.

(إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)إن لم تقوموا بتوحيد الله و تطيعونى﴿٢٦﴾

(فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ)أى:

الأشراف و الرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

(مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا)لست بملك

و هذا مانع بزعمهم عن اتباعه مع أنه فى نفس الأمر هو الصواب الذى لا ينبغى غيره لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه و يراجعوه في كل أمر بخلاف الملائكة.

(وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)

*ثُمَّ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا أَرَاذِلُنَا كَالْبَاعَةِ وَ الْحَاكَةِ وَ أَشْبَاهِهِمْ وَ لَمْ يَتْبَعْكَ الْأَشْرَافُ وَ لَا الرُّؤَسَاءُ مِنَّا

*أى:ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل و السفلة بزعمهم.

و هم فى الحقيقة الأشراف و أهل العقول الذين انقادوا للحق و لم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ الذين اتبعوا كل شيطان مريد

و اتخذوا آلهة من الحجر و الشجر يتقربون إليها و يسجدون لها فهل ترى أرذل من هؤلاء و أخس؟.

(بَادِيَ ٱلرَّأْيِ)إنما اتبعوك من غير تفكر و روية

*بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم و لم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول و بمجرد ما يصل إلى أولى الألباب يعرفونه و يتحققونه لا كالأمور الخفية التى تحتاج إلى تأمل و فكر طويل.

(وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)لستم أفضل منا فننقاد لكم

(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ)

فِيمَا تَدَّعونه لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَ الصَّلَاحِ وَ الْعِبَادَةِوَ السَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ إِذَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا.

*و كذبوا فى قولهم هذا فإنهم رأوا من الآيات التى جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه ﴿٢٧﴾

(قَالَ)لهم نوح مجاوبا(يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي)على يقين و جزم يعنى

و هو الرسول الكامل القدوة الذى ينقاد له أولو الألباب و يضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال

و هو الصادق حقا فإذا قال:-إنى على بينة من ربى فحسبك بهذا القول شهادة له و تصديقا.

(وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ)أوحى إلى و أرسلنى و منَّ على بالهداية

(فَعُمِّيَتْ)خفيت(عَلَيْكُمْ)و بها تثاقلتم.

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا)أنكرهكم على ما تحققناه و شككتم أنتم فيه؟

(وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ)حتى حرصتم على رد ما جئت به ليس ذلك ضارنا

و ليس بقادح من يقيننا فيهو لا قولكم و افتراؤكم علينا صادا لنا عما كنا عليه.

و إنما غايته أن يكون صادا لكم أنتم و موجبا لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل فإذا وصلت الحال إلى هذه الغايةفلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله و لا إلزامكم ما نفرتم عنه و لهذا قال:-

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)﴿٢٨﴾

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

(وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ)على دعوتى إياكم(مَالًاۖ) فتستثقلون المغرم

(إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ)و كأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء فقال لهم:–

(وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ)

أى:ما ينبغى لى و لا يليق بى ذلك بل أتلقاهم بالرحب و الإكرام و الإعزاز و الإعظام

*كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ احْتِشَامًا و نَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ كَمَا سَأَلَ أَمْثَالُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺأَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضُّعَفَاءِ و يَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:-

{وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الْأَنْعَام: 52]

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ}[الْكَهْف: 28]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}[الْأَنْعَام: 53]

*يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ و لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا بَلْ هُوَ يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ شَرِيفٍ و وَضِيعٍ فَمَنِ اسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا

(إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ)فمثيبهم على إيمانهم و تقواهم بجنات النعيم.

(وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ)حيث تأمروننى بطرد أولياء الله و إبعادهم عنى.

و حيث رددتم الحق لأنهم أتباعه و حيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم و إنه ليس لنا عليكم من فضل29

(وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ)

من يمنعنى من عذابه فإن طردهم موجب للعذاب و النكال الذى لا يمنعه من دون الله مانع.

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)ما هو الأنفع لكم و الأصلح و تدبرون الأمور30

(وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ)أى: غايتى أنى رسول الله إليكم أبشركم و أنذركم

*و أما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا و أعطى من أشاء و أحرم من أشاء

(وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ)فأخبركم بسرائركم و بواطنكم

(وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ)و المعنى: أني لا أدعى رتبة فوق رتبتى و لا منزلة سوى المنزلة التى أنزلنى الله بها و لا أحكم على الناس بظنى.

(وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِىٓ أَعۡيُنُكُمۡ)أى: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا

(لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمۡۖ)

فإن كانوا صادقين فى إيمانهم فلهم الخير الكثير و إن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

(إِنِّىٓ إِذًا)أى: إن قلت لكم شيئا مما تقدم

(لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

و هذا تأييس منه ﷺ لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم و تقنيع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم و لم يدركوا منه مطلوبهم31

(قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا)حاججتنا(فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

فما أجهلهم و أضلهم حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين:-يا نوح قد نصحتنا و أشفقت علينا و دعوتنا إلى أمرلم يتبين لنا فنريد منك أن تبينه لنا لننقاد لك

و إلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف الذى قد دعى إلى أمر خفى عليه

و لكنهم فى قولهم كاذبون و على نبيهم متجرئون.

و لم يردوا ما قاله بأدنى شبهة فضلا عن أن يردوه بحجة.

و لهذا عدلوا – من جهلهم و ظلمهم – إلى الاستعجال بالعذاب و تعجيز الله 32

و لهذا أجابهم نوح ﷺ بقوله:-

(قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ)إن اقتضت مشيئته و حكمته أن ينزله بكم فعل ذلك.

(وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ)لله و أنا ليس بيدى من الأمر شىء33

(وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ)يضلّكم و يهلككم

أي: إن إرادة الله غالبة فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق فلو حرصت غاية مجهودى و نصحت لكم أتم النصح—و هو قد فعل الﷺ—فليس ذلك بنافع لكم شيئا

(هُوَ رَبُّكُمۡ)يفعل بكم ما يشاء و يحكم فيكم بما يريد(وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ)فيجازيكم بأعمالكم34

(أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ)

هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق فى قصته مع قومه و أن المعنى:—أن قومه يقولون:— افترى على الله كذبا و كذب بالوحى الذى يزعم أنه من الله و أن الله أمره أن يقول:—

(قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ) كل عليه وزره(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ)

و يحتمل أن يكون عائدا إلى النبى محمد ﷺو تكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح و قومه و لأنها من الأمور التى لا يعلمها إلا الأنبياء

فلما شرع الله فى قصها على رسوله و كانت من جملة الآيات الدالة على صدقه و رسالته ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام فقال:—

(أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ)اختلقه محمد من تلقاء نفسه أى:—

فهذا من أعجب الأقوال و أبطلها فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ و لم يكتب و لم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب

فجاء بهذا الكتاب الذى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا—مع هذا—أنه افتراه علم أنهم معاندون و لم يبق فائدة في حجاجهم بل اللائق فى هذه الحال الإعراض عنهم

و لهذا قال:—(فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي)ذنبى و كذبى

(وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ)مِن كفركم وتكذيبكم و إجرامكم فلم تستعجون فى تكذيبى35

(وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ)تحزن و لا تبال بهم و بأفعالهم

(بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ)فإن الله قد مقتهم و أحق عليهم عذابه الذى لا يرد36

(وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ)السفينة(بِأَعۡيُنِنَا)بحفظنا و مرأى منا و على مرضاتنا

(وَوَحۡيِنَا)تعليمنا لك ما تصنعه(وَلَا تُخَٰطِبۡنِي)تراجعنى(فِي)إهلاك(ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ)

(إِنَّهُم مُّغْـرَقُونَ)أي: قد حق عليهم القول ونفذ فيهم القدر.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نُوح لَمَّا اسْتَعْجَلَ قومُه نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ وَ عَذَابَهُ لَهُمْ فَدَعَا عَلَيْهِمْ نوحُ دَعْوَتَهُ الَّتِى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:-{رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نُوحٍ: 26]

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [الْقَمَرِ: 10]

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ:-{أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ}فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا يَهُمَّنك أَمْرُهُمْ37

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

(وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ)فامتثل أمر ربه و جعل يصنع الفلك

(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ)و رأوا ما يصنع

(سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)يذله

(وَيَحِلُّ)ينزل(عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)نحن أم أنتم. و قد علموا ذلك حين حل بهم العقاب39

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا)أى قدرنا بوقت نزول العذاب بهم

(وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ)المكان الذى يخبز فيه-

أنزل الله السماء بالماء بالمنهمر و فجر الأرض كلها عيونا حتى التنانير التى هى محل النار فى العادة و أبعد ما يكون عن الماء تفجرت فالتقى الماء على أمر قد قدر.

(قُلْنَا)لنوح:–(ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ)

أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر و أنثى لتبقى مادة سائر الأجناس و أما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين فلأن السفينة لا تطيق حملها

(إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ)ممن كان كافرا كابنه الذى غرق-و امرأته كانت كافرة بالله و رسوله

(وَمَنْ ءَامَنَ ۚ)

(و)الحال أنه

(وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ)نَزْرٌ يَسِيرٌ مَع طُولِ الْمُدَّةِ وَ الْمُقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا41

(وَقَالَ)نوح لمن أمره الله أن يحملهم:–(ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا)أى: تجرى على اسم الله

(وَمُرْسَىٰهَآ)و ترسو على اسم الله و تجرى بتسخيره و أمره.

*أَيْ: بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ جَرْيُها عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَ بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ مُنْتَهَى سَيْرِهَا وَ هُوَ رُسُوها.

وَ قَالَ اللَّهُ{فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ28وَقُلْ رَبِّ أَنزلْنِي مُنزلا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزلِينَ} [الْمُؤْمِنُونَ]

وَ لِهَذَا تُسْتَحَبُّ التَّسْمِيَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ:-عِنْدَ الرُّكُوبِ عَلَى السَّفِينَةِ وَ عَلَى الدَّابَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ12لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ13وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}[الزُّخْرُفِ]

وَ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى ذَلِكَ وَ النَّدْبِ إِلَيْهِ كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ "الزُّخْرُفِ" إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ بِهِ الثِّقَةُ.

(إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)حيث غفر لنا و رحمنا و نجانا من القوم الظالمين41

*ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال:–(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ)أى: بنوح و من ركب معه

(فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ)و الله حافظها و حافظ أهلها

*السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَتْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ

وَ هَذِهِ السَّفِينَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ سَائِرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ تَحْتَ كَنَفه وَ عِنَايَتِهِ وَ حِرَاسَتِهِ وَ امْتِنَانِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ11لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الْحَاقَّةِ]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ13تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ14وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [الْقَمَرِ]

(وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ)لما ركب ليركب معه

(وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ)عنهم حين ركبوا أى: مبتعدا و أراد منه أن يقرب ليركب فقال له:–

(يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ)فيصيبك ما يصيبهم42

فـــــ(قَالَ)ابنه مكذبا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة.

(سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ)أى:– سأرتقى جبلا أمتنع به من الماء

فـــ(قَالَ)نوح:–(لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ)فلا يعصم أحدا جبل و لا غيره

و لو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب لما نجا إن لم ينجه الله.

وَ قِيلَ: إِنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ كَمَا يُقَالُ: "طَاعِمٌ وَ كَاسٍ" بِمَعْنَى مَطْعُومٍ و مكسُوّ

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ)فلما أغرقهم الله و نجى نوحا و من معه44

(وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ)الذى خرج منك و الى نزل إليك أى: ابلعى الماء الذى على وجهك

(وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي)أمسكى عن المطر فامتثلتا لأمر الله

(وَغِيضَ)فنضب(ٱلۡمَآءُ)فابتلعت الأرض ماءها و أقلعت السماء الماء

(وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ)بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

(وَٱسۡتَوَتۡ)أرست(عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ)ذلك الجبل المعروف فى أرض الموصل.

*قَدْ أَبْقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ عليه السلام عَلَى الجُودى مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ عِبرة وَ آيَةً حَتَّى رَآهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ كَمْ مِنْ سَفِينَةٍ قد كَانَتْ بَعْدَهَا فَهَلَكَتْ وَ صَارَتْ رَمَادًا .

(وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)أتبعوا بعد هلاكهم لعنة و بعدا و سحقا لا يزال معهم.

هلاكًا و بعدًا للقوم الظالمين الذين تجاوزوا حدود الله و لم يؤمنوا به.

(وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي)

أى:و قد قلت لى:–فـــــــ(احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)

(وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ)و لن تخلف ما وعدتنى به.

لعله عليه السلام حملته الشفقة و أن الله وعده بنجاة أهله ظن أن الوعد لعمومهم من آمن و من لم يؤمن

فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء

(وَأَنتَ أَحۡكَمُ)أعدل(ٱلۡحَٰكِمِينَ)و مع هذا ففوض الأمر لحكمة الله البالغة45

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

ف (قَالَ)الله(يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ)الذين وعدتك بإنجائهم

(إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ)أي:هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن بالله و لا رسوله.

*وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ:-مَا زَنَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ

*و قولُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِى لَا مَحِيدَ عَنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَغْيَرُ مِنْ أَنْ يُمَكِّنَ امْرَأَةَ نَبِيٍّ مِنَ الْفَاحِشَةِ وَ لِهَذَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ رموا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ بنت الصِّدِّيقِ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ وَ أَنْكَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهَذَا وَ أَشَاعُوهُ وَ لِهَذَا قَالَ{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}إلى قَوْلِهِ

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}[النُّور: 11-15]

*وَ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ قَتَّة قَالَ:-سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ-سُئِل-وَ هُوَ إِلَى جَنْبِ الْكَعْبَةِ - عَنْ قَوْلِ اللَّهِ:-{فَخَانَتَاهُمَا} [التَّحْرِيم:10] قَالَ: أَمَا وَ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالزِّنَا وَ لَكِنْ كَانَتْ هَذِهِ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ مَجْنُونٌ وَ كَانَتْ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى الْأَضْيَافِ.ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}

قال ابن عيينة: وأخبرنى عمار الدُهْنِى أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:-

كَانَ ابْنُ نُوحٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَكْذِبُ!

قَالَ تَعَالَى: {وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ}قَالَ:-وَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:-مَا فَجَرَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ.

(فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ)ما لا تعلم عاقبته و مآله و هل يكون خيرا أو غير خير.

(إِنِّيٓ أَعِظُكَ)وعظا(أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ)تكون به من الكاملين و تنجو به من صفات الجاهلين.

فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه46

(قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ)

فبالمغفرة و الرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين

و دل هذا على أن نوحاعليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه فى نجاة ابنه محرم داخل فى قوله:–

(وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

بل تعارض عنده الأمران و ظن دخوله في قوله:-(وَأَهْلَكَ)

و بعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهى عن الدعاء لهم و المراجعة فيهم47

(قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ)

من الآدميين و غيرهم من الأزواج التى حملها معه فبارك الله فى الجميع حتى ملأوا أقطار الأرض و نواحيها.

(وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ)

أي: هذا الإنجاءليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك أحللنا به العقاب و إن متعوا قليلا فسيؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺبعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة التى لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته48

(تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ)السالفة

(نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ)يقولوا: إنه كان يعلمها.

(فَٱصۡبِرۡۖ)فاحمد الله و اشكره و اصبر على ما أنت عليه من الدين القويم و الصراط المستقيم و الدعوة إلى الله

(إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ)

الذين يتقون الشرك و سائر المعاصي فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.

*لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَ لَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ:-إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا مِنْهُ بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَ أَذَاهُمْ لَكَ فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَ نَحُوطُكَ بِعِنَايَتِنَا وَ نَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَ لِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كَمَا فَعَلْنَا بِإِخْوَانِكَ بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ51 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ171 إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ172وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصَّافَّات]

وَ قَالَ تَعَالَى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}49

قصة هود 50-60

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ)إلى آخر القصة أى: (وَ) أرسلنا

(وَإِلَىٰ عَادٍ)و هم القبيلة المعروفة فى الأحقاف من أرض اليمن

(أَخَاهُمۡ)فى النسب

(هُودٗاۚ)ليتمكنوا من الأخذ عنه و العلم بصدقه(حوالى 2400 ق.م)

فـ(قَالَ)لهم(يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ)

أى:أمرهم بعبادة الله وحده و نهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله

(إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ)

و أخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيرهو تجويزهم لذلك و وضح لهم وجوب عبادة الله

و فساد عبادة ما سواه50

*ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال:-

(يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ)

أى:غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا:هذا يريد أن يأخذ أموالنا و إنما أدعوكم و أعلمكم مجانا.

(إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)فتميِّزوا بين الحق و الباطل؟

ما أدعوكم إليه و أنه موجب لقبوله منتف المانع عن رده51

(وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ)فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح و الإنابة إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك(يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا)بكثرة الأمطار التى تخصب بها الأرض و يكثر خيرها.

(وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ)فإنهم كانوا من أقوى الناس

و لهذا قالوا(مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ)فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

(وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ)عنه أى: عن ربكم

(مُجۡرِمِينَ)مستكبرين عن عبادته متجرئين على محارمه52

فـــــ(قَالُواْ)رادين لقوله:-(يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ)

إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها فهذه غير لازمة للحق بل اللازم أن يأتى النبى بآية تدل على صحة ما جاء به

و إن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة فقد كذبوا فى ذلك فإنه ما جاء نبى لقومه إلا و بعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ)

*و لو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له و الأمر بكل عمل صالح و خلق جميل

و النهى عن كل خلق ذميم من الشرك بالله و الفواحش و الظلم و أنواع المنكرات مع ما هو مشتمل عليه هودﷺمن الصفات التى لا تكون إلا لخيار الخلق و أصدقهم لكفى بها آيات و أدلة على صدقه.

*بل أهل العقول و أولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التى يراها بعض الناس هى المعجزات فقط.

*و من آياته و بيناته الدالة على صدقه أنه شخص واحد ليس له أنصار و لا أعوان و هو يصرخ فى قومه و يناديهم و يعجزهم و يقول لهم:–

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ)

و هم الأعداء الذين لهم السطوة و الغلبة و يريدون إطفاء ما معه من النور بأي طريق كان و هو غير مكترث منهم و لا مبال بهم و هم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشىء من السوء إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا قَوْلِكَ)أى: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذى ما أقمت عليه بينة بزعمهم

(وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)بمصدقين

و هذا تأييس منهم لنبيهم هود ﷺفى إيمانهم و أنهم لا يزالون فى كفرهم يعمهون53

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾

(إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ)أصابتك(بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ)خبال و جنون فصرت تهذى بما لا يعقل.

فسبحان من طبع على قلوب الظالمين كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق بهذه المرتبة التى يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم.

و لهذا بين هود عليه السلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم و لا من آلهتهم أذى

(قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾)

(مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي)اطلبوا لى الضرر(جَمِيعٗا) كلكم بكل طريق تتمكنون بها منى

(ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)تمهلونى55

(إِنِّي تَوَكَّلۡتُ)اعتمدت فى أمرى كله(عَلَى ٱللَّهِ)

(رَبِّي وَرَبِّكُمۚ)أى هو خالق الجميع و مدبرنا و إياكم و هو الذى ربانا

(مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ)

فلا تتحرك و لا تسكن إلا بإذنه فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي و الله لم يسلطكم على لم تقدروا على ذلك فإن سلطكم فلحكمة أرادها

فــــــ(إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)أى على عدل و قسط و حكمة و حمد فى قضائه و قدره فى شرعه و أمره

و في جزائه و ثوابه و عقابه لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التى يحمد و يثنى عليه بها56

(فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ)فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم

(وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ)يقومون بعبادته و لا يشركون به شيئا

(وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ)فإن ضرركم إنما يعود عليكم فالله لا تضره معصية العاصين و لا تنفعه طاعة المطيعين

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

(إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ)57

(وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا)أى عذابنا بإرسال الريح العقيم التى(مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)

(نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا)

(وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ)عظيم شديد أحله الله بعاد فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

(وَتِلۡكَ عَادٞ)الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم

(جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ)و لهذا قالوا لهود(مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ)فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته و إنما عاندوا و جحدوا

(وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ)لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع المرسلين لأن دعوتهم واحدة

(وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ)أي متسلط على عباد الله بالجبروت

(عَنِيدٖ)

معاند لآيات الله فعصوا كل ناصح و مشفق عليهم و اتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله 59

(وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ)

فكل وقت و جيل إلا و لأنبائهم القبيحة و أخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به و ذم يلحقهم

(وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ)لهم أيضا لعنة(أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ)أى جحدوا من خلقهم و رزقهم و رباهم

(أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ)أبعدهم الله عن كل خير و قربهم من كل شر 60

(۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ)إلى آخر قصتهم .

قصة صالح 61-68

أى:(و)أرسلنا

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ)و هم: عاد الثانية المعروفون الذين يسكنون الحجر و وادى القرى الذين يسكنون مدائن الحجر بين تبوك و المدينة

(أَخَاهُمۡ)فى النسب

(صَٰلِحٗاۚ)عبد الله و رسوله ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وحده

فـــــــ(قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ)وحدوه و أخلصوا له الدين

(مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ)لا من أهل السماء و لا من أهل الأرض.

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ)خلقكم فيها

(وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ)استخلفكم(فِيهَا)و أنعم عليكم بالنعم الظاهرة و الباطنة

و مكنكم فى الأرض تبنون و تغرسون و تزرعون و تحرثون ما شئتم و تنتفعون بمنافعها و تستغلون مصالحها فكما أنه لا شريك له فى جميع ذلك فلا تشركوا به فى عبادته.

(فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ)مما صدر منكم من الكفر و الشرك و المعاصى و أقلعوا عنها

(ثُمَّ تُوبُوٓاْ)ارجعوا(إِلَيۡهِۚ)بالتوبة النصوح و الإنابة فيما تستقبلونه

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ)ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة

(مُّجِيبٞ)بإعطائه سؤله و قبول عبادته و إثابته عليها أجل الثواب

و اعلم أن قربه تعالى نوعان:- 1-عام 2-و خاص

فالقرب العام:-قربه بعلمه من جميع الخلق و هو المذكور فى قوله(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)

و القرب الخاص:-قربه من عابديه و سائليه و محبيه و هو المذكور فى قوله (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

و في هذه الآية و فى قوله تعالى:-(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ)

و هذا النوع قرب يقتضى إلطافه تعالى و إجابته لدعواتهم و تحقيقه لمراداتهم

و لهذا يقرن باسمه « القريب » اسمه « المجيب »

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام و رغبهم فى الإخلاص لله وحده ردوا عليه دعوته و قابلوه أشنع المقابلة61

(قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ)أي:قد كنا نرجوك و نؤمل فيك العقل و النفع و هذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفا بمكارم الأخلاق و محاسن الشيم و أنه من خيار قومه.

و لكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة التى مضمونها أنك قد كنت كاملا و الآن أخلفت ظننا فيك و صرت بحالة لا يرجى منك خير. و ذنبه ما قالوه عنه و هو قولهم:-

(أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا)

و بزعمهم أن هذا من أعظم القدح فى صالح كيف قدح فى عقولهم و عقول آبائهم الضالين و كيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع و لا يضر و لا يغنى شيئا من الأحجار و الأشجار و نحوها.

و أمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذى لم تزل نعمه عليهم تترى و إحسانه عليهم دائما ينزل الذى ما بهم من نعمة إلا منه و لا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

(وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ)ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكا مؤثرا فى قلوبنا الريب

و بزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه و هم كذبة فى ذلك 62

و لهذا بين كذبهم فى قوله:—

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾

(قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ)برهان و يقين(مِّن رَّبِّي)

(وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ)منَّ علي برسالته و وحيه

(فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ)باتباعكم على ما أنتم عليه و ما تدعونني إليه؟

(فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ)خسار و تباب و ضرر63

(وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ)

لها شرب من البئر يوما ثم يشربون كلهم من ضرعها و لهم شرب يوم معلوم.

(فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ)أي: ليس عليكم من مؤنتها و علفها شيء

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ)بعقر

(فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا)فنحروا الناقة

(فَقَالَ تَمَتَّعُواْ)استمتعوا بحياتكم(فِي دَارِكُمۡ)بلدكم(ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ)

(ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ)بل لا بد من وقوعه65

(فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ)بلطف و نعمة(مِّنَّا)من الله

(وَمِنۡ خِزۡيِ)ہوان و ذلّ

(يَوۡمِئِذٍۚ)نجيناهم من العذاب و الخزى و الفضيحة

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ)و من قوته و عزته أن أهلك الأمم الطاغية و نجى الرسل و أتباعهم 66

(وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ)العظيمة ذات الصوت العالى فقطعت قلوبهم و انخلعت

(فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ)خامدين لا حراك لهم 67

(كَأَن)كأنهم فى سرعة زوالهم و فنائهم

(لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ)لم يكونوا بها أمس و لم تعمر بهم يوما. أى كأنهم لما جاءهم العذاب:—

ما تمتعوا فى ديارهم و لا أنسوا بها و لا تنعموا بها يوما من الدهر

قد فارقهم النعيم و تناولهم العذاب السرمدى الذى ينقطع الذى كأنه لم يزل

(أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ)جحدوا(رَبَّهُمۡۗ)بعد أن جاءتهم الآية المبصرة

(أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ)فما أشقاهم و أذلهم نستجير بالله من عذاب الدنيا و خزيها (Î)68

قصة ابراهيم 69-76
(حوالى 1997 ق.م)

(وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ)من الملائكة الكرام رسولنا

(إِبۡرَٰهِيمَ)الخليل

(بِٱلۡبُشۡرَىٰ)بالبشارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط و أمرهم أن يمروا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق

فلما دخلوا عليه(قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ)سلموا عليه (قَالَ سَلَٰمٞۖ)فرد عليهم السلام.

ففى هذا مشروعية السلام و أنه لم يزل من ملة إبراهيم ﵇ و أن السلام قبل الكلام

و أنه ينبغى أن يكون الرد أبلغ من الابتداء لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد

و رده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت و الاستمرار و بينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

*قَالَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ:-هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيّوه بِهِ لِأَنَّ الرَّفْعَ يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَ الدَّوَامِ

(فَمَا لَبِثَ)ذهب إبراهيم سريعا لما دخلوا عليه فبادر لبيته

(أَن جَآءَ)فاستحضر لأضيافه

(بِعِجۡلٍ)عجلا(فَتِيّ البقر)

(حَنِيذٖ)مشويا على الرَّضْفِ(الحجارة المحماة)سمينا فقربه إليهم فقال:—ألا تأكلون؟٦٩

تقدم الكلام في سورة الاعراف (73-79)

(فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ)إلى تلك الضيافة

(نَكِرَهُمۡ)و ظن أنهم أتوه بشر و مكروه و ذلك قبل أن يعرف أمرهم.

(وَأَوۡجَسَ)أحس(مِنۡهُمۡ)فى نفسه(خِيفَةٗۚ)و أضمرها

فـــ(قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ)رسل الله(أُرۡسِلۡنَآ)أرسلنا الله(إِلَىٰ)إهلاك(قَوۡمِ لُوطٖ)

(وَٱمۡرَأَتُهُۥ)سارة(قَآئِمَةٞ)تخدم أضيافه(فَضَحِكَتۡ)حين سمعت بحالهم و ما أرسلوا به تعجبا فتعجبت من ذلك.

(فَبَشَّرۡنَٰهَا)على ألسنة الملائكة بأنها ستلد مِن زوجها إبراهيم ولدًا يسمى(بِإِسۡحَٰقَ)

(وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ)و سيعيش ولدها و سيكون لها بعد إسحاق حفيد منه و هو (يَعۡقُوبَ)

*بِوَلَدٍ لَهَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ عَقِبٌ وَ نَسْلٌ فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ إِسْحَاقَ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ:-

{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [الْبَقَرَة: 133]

وَ مِنْ هَاهُنَا اسْتَدَلَّ مَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ وَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقُ لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَ أَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ وَ هُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ وَ لَمْ يُولَدْ لَهُ بَعْدُ يَعْقُوبُ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِه.

وَ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ فَيُمْتَنَعُ أَنَّ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَ الْحَالَةُ هَذِهِ فَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ

وَ هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِدْلَالِ وَ أَصَحِّهِ و أَبْيَنِه وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ٧٠

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

و (قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ)فهذان مانعان من وجود الولد

*حَكَى قَوْلَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا حَكَى فِعْلَهَا فِي الْآيَةِ الأخرى فإنها:-{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ}

و قال الله{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [الذاريات: 29]

(إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)72

(قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ)

فإن أمره لا عجب فيه لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء فلا يستغرب على قدرته شيء و خصوصا فيما يدبره و يمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

(رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ)أي:-لا تزال رحمته و إحسانه و بركاته و هي:-

الزيادة من خيره و إحسانه و حلول الخير الإلهي على العبد

(عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ)الصفات لأن صفاته صفات كمال حميد الأفعال لأن أفعاله :-

إحسان و جود و بر و حكمة و عدل و قسط.

(مَّجِيدٌ)و المجد:-

هو عظمة الصفات و سعتها فله صفات الكمال و له من كل صفة كمال أكملها و أتمها و أعمها.

*هُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَ أَقْوَالِهِ مَحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَ ذَاتِهِ

وَ لِهَذَا ثَبَتَ فِي البخاري3370-عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ

فَقَالَ: أَلَا أُهْدِى لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقُلْتُ: بَلَى فَأَهْدِهَا لِي فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ:"قُولُوا:- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" 73

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ)الخوف الذى أصابه من أضيافه

(وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ)بالولد

(يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ)التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط و قال لهم:

(إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ)74

(إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ)أى: ذو خلق حسن و سعة صدر و عدم غضب عند جهل الجاهلين.

(أَوَّٰهٌ)متضرع إلى الله فى جميع الأوقات

(مُّنِيبٌ)رجّاع إلى الله بمعرفته و محبته و الإقبال عليه و الإعراض عمن سواه 75

فلذلك كان يجادل عمن حتّم الله بهلاكهم فقيل له:-

(يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ)الجدال

(إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ)بهلاكهم

(وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)مصروف عنهم و لا مدفوع. فلا فائدة فى جدالك.

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَعليه السلامأَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَ هُوَ مَا أَوْجَس مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا وَ بَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ وَ طَابَتْ نَفْسُهُ وَ أَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ أَخَذَ يَقُولُ

{إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ}[الْعَنْكَبُوتِ:32] 76

قصة لوط 77-83

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا)أى: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا

(لُوطًا سِىٓءَ)شق عليه(بِهِمْ)مجيئهم

(وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا)عجزت طاقته عن تحمل الأمر.

(وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)بلاء و شدة و حرج

لأنه علم أن قومه لا يتركونهم لأنهم فى صور شباب جرد مرد فى غاية الكمال و الجمال77

و لهذا وقع ما خطر بباله فـــــــ(وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ)يسرعون و يبادرون

(إِلَيْهِ)يريدون أضيافه بالفاحشة التى كانوا يعملونها و لهذا قال:-

(وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ)أى: الفاحشة التى ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

(قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي)يُرْشِدُهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ لِلرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-
{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ165وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشُّعَرَاءِ]
وَ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-{قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} [الْحِجْرِ] أَيْ: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ ضِيَافَةِ الرِّجَالِ
{قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ71 لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الْحِجْرِ]
وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}
قَالَ مُجَاهِدٌ:-لَمْ يَكُنَّ بَنَاتِهِ وَ لَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِهِ وَ كُلُّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِه.

(هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ)من أضيافى

و هذا كما عرض لسليمانﷺعلى المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق و لعلمه أن بناته ممتنع منالهن و لا حق لهم فيهن. و المقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى .

(فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)و إما أن تراعونى فى ضيفى-اقْبَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَى نِسَائِكُمْ

(وَلَا تُخْزُونِ)تفضحونى(فِي)بالاعتداء على(ضَيْفِيٓۖ)أى:–إما أن تراعوا تقوى الله

(أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ)
ينهى من أراد ركوب الفاحشة فيحول بينهم و بينها فإهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة ؟

*و هذا دليل على مروجهم و انحلالهم من الخير و المروءة78

فـــ(قَالُواْ)له:-(لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ)

أى: لا نريد إلا الرجال و لا لنا رغبة فى النساء. فاشتد قلق لوط عليه السلام

و(قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً)و أنصارًا معى

(أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ)عشيرة تمنعنى منكم لَحُلْتُ بينكم و بين ما تريدون كقبيلة مانعة لمنعتكم.
و هذا بحسب الأسباب المحسوسة و إلا فإنه يأوى إلى أقوى الأركان و هو الله الذى لا يقوم لقوته أحد
*البخارى3372 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ:-"نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ:-
{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: 260]وَ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَ لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ80

و لهذا لما بلغ الأمر منتهاه و اشتد الكرب:-

(قَالُواْ يَٰلُوطُ)له:-(إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ)أي:–أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه

(لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ)بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه فطمس أعينهم فانطلقوا يتوعدون لوطا بمجيء الصبح كَمَا قَالَ:-

{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ37وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ38 فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}[القَمَرِ]

*و أمر الملائكة لوطا أن يسري بأهله:–

(فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ)بجانب منه قبل الفجر بكثير ليتمكنوا من البعد عن قريتهم.

(وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ)بادروا بالخروج و ليكن همكم النجاة و لا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

(إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا)من العذاب

(مَآ أَصَابَهُمۡۚ)لأنها تشارك قومها فى الإثم فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

(إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ)

فكأن لوطا استعجل ذلك فقيل له:–(أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ)81

*جاء فى موقع الاعجاز العلمى عذاب قوم لوط بالصيحة:-

قال تعالى في سورة الحجر:- (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ67 قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ68 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ 69 قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ70 قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ71 لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ72 فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ73 فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ74 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ75 وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ76 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

تشير هذه الآيات إلى أنّ الصيحة التى قضت على قوم لوط كانت مترافقة مع زلزال كبير و بركان قوى فكانت الحمم البركانية تخرج من باطن ثمّ تهبط عليها كالمطر على قوم لوط الذين كانوا يسكنون منطقة (سديم) فى الأردن.

و تشير الآيات السابقة إلى أنّ قوم لوط جاءتهم الصيحة "مشرقين" أى فى ساعات الصبح الأولى.

و يمكننا التساؤل عمّا إذا كان موت لوط الفعلى بالصيحة و الرجفة أولاً ثم بالبراكين و الزلازل لأن الله تعالى أراد أن لا يبقى لهم أثراً.

و يؤكد هذا عالم الآثار الألمانى وورنر كيلر (Werner Keller) قائلاً: -

"غاص وادى سديم الذي يتضمن (سدوم) و(عامورا) مع الشق العظيم الذي يمر في هذه المنطقة إلى أعماق سحيقة في يوم واحد قال إنّ هذا الدمار حدث بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات و أضواء نتج عنها غاز طبيعى و حريق شامل تحررت معه القوى البركانية التى كانت هامدة فى الأعماق على طول الصدع في ذلك الغور.

أما قوله تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)فيمكن أن يعنى حدوث انفجار بركانى على ضفتى بحيرة لوط و لهذا كانت الحجارة التى انطلقت(مِنْ سِجّيل)و عن ذلك يقول وورنر كيلر أيضاً فى كتابه :-

"تحررت القوى البركانية التى كانت هامدة فى الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور
و لا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة فى الوادى العلوى من الضفة الغربية بينما تترسب هنا
الحمم البركانية و تتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسى".

....

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا)بنزول العذاب و إحلاله فيهم(جَعَلۡنَا)ديارهم (عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا)قلبناها عليهم

*وَ هِيَ قَرْيَتُهُمُ الْعَظِيمَةُ وَ هِيَ سَدُوم {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى53فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} [النَّجْم]

(وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ)حجارة النار الشديدة الحرارة

*وَ هِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ: حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ

(مَّنضُودٖ)متتابعة تتبع من شذ عن القرية82

(مُّسَوَّمَةً)معلمة مَخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِهَا كُلُّ حَجَرٍ مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه عليها علامة العذاب و الغضب

(عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)الذين يشابهون لفعل قوم لوط(بِبَعِيدٖ)عَنْهُ.

فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم83

قصة شعيب 84-95
(حوالى 1550 ق.م)

(۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ)

(و) أرسلنا

(وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ)القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين فى أدنى فلسطين

*وَ هُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَ الشَّامِ قَرِيبًا مِنْ بِلَادِ مَعَانٍ فِي بَلَدٍ يُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا "مَدْيَنُ"

(أَخَاهُمْ)فى النسب

(شُعَيْبًا)لأنهم يعرفونه و ليتمكنوا من الأخذ عنه.

فـــــــ(قَالَ)لهم (يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ)

أي: أخلصوا له العبادة فإنهم كانوا يشركون به و كانوا–مع شركهم–يبخسون المكيال و الميزان

و لهذا نهاهم عن ذلك فقال:–(وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ)بل أوفوا الكيل و الميزان بالقسط.

(إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ)بنعمة كثيرة و صحة و كثرة أموال و بنين

فاشكروا الله على ما أعطاكم و لا تكفروا بنعمة الله فيزيلها عنكم.

(وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)يحيط بكم و لا يبقى منكم باقية-فى الدار الآخرة84

(وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ)بالعدل الذى ترضون أن تعطوه

(وَلَا تَبْخَسُوا۟)تنقصوا(ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ)فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال و الميزان.

(وَلَا تَعْثَوْا۟)تعملوا(فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)بالفساد

فإن الاستمرار على المعاصي:–

1–يفسد الأديان و العقائد و الدين و الدنيا 2–و يهلك الحرث و النسل85

(بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ)

يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير و ما هو لكم فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية و هو ضار لكم جدا.

*و يُشْبِهُ قَوْلَهُ تَعَالَى:-{قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [الْمَائِدَةِ:100]

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)فاعملوا بمقتضى الإيمان

(وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)

لست بحافظ لأعمالكم و وكيل عليها و إنما الذي يحفظها الله تعالى و أما أنا فأبلغكم ما أرسلت به86

(قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ)قراءتك

(تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ)

قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم و الاستبعاد لإجابتهم له.و معنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا:–

أنك تصلى لله و تتعبد له أفإن كنت كذلك

أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك

فكيف نتبعك و نترك آباءنا الأقدمين أولى العقول و الألباب؟! و كذلك لا يوجب قولك لنا:–

(أَوْ أَن نَّفْعَلَ)نمتنع عن التصرف(فِيٓ)كسب(أَمْوَٰلِنَا)بما نستطيع من احتيال و مكر بما قلت لنا من وفاء الكيل و الميزان و أداء الحقوق الواجبة فيها

(مَا نَشَٰٓؤُاْ)بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا فليس لك فيها تصرف.

و لهذا قالوا فى تهكمهم:-(إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ)فالحلم و الوقار لك خلق

(ٱلرَّشِيدُ)و الرشد لك سجية فلا يصدر عنك إلا رشد و لا تأمر إلا برشد و لا تنهى إلا عن غي أى:–

ليس الأمر كذلك.

و قصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين:–بالسفه و الغواية

أى: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد و آباؤنا هم السفهاء الغاوون؟!!

*و هذا القول الذى أخرجوه بصيغة التهكم و أن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه بل الأمر كما قالوه.

إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون و أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون

فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر و أى فحشاء و منكر أكبر من عبادة غير الله و من منع حقوق عباد الله أو سرقتها بالمكاييل و الموازين و هو عليه السلام الحليم الرشيد87

(قَالَ)لهم شعيب:–(يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ)يقين و طمأنينة فى صحة ما جئت به(مِّن رَّبِّي)

(وَرَزَقَنِي)أعطانى الله(مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ) من مال حلال أو النبوة

(وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ)فعل(مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ)بالبخس فى المكيال و الميزان

فلست أريد أن أنهاكم عن أمر و أفعله أنا و حتى تتطرق إليَّ التهمة فى ذلك بل ما أنهاكم عن أمر إلا و أنا أول مبتدر لتركه

(إِنْ أُرِيدُ)ليس لى من المقاصد

(إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ)أن تصلح أحوالكم و تستقيم منافعكم و ليس لى من المقاصد الخاصة لى وحدى شيء

(مَا ٱسْتَطَعْتُۚ)بحسب استطاعتى.

و لما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس دفع هذا بقوله:–

(وَمَا) يحصل لى من(تَوْفِيقِيٓ)لفعل الخير و الانفكاك عن الشر(إِلَّا بِٱللَّهِۚ)تعالى لا بحولى و لا بقوتى.

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)اعتمدت فى أمورى و وثقت فى كفايته

(وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ)أرجع فى أداء ما أمرنى به من أنواع العبادات و فى هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

و بهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد و هما:-1-الاستعانة بربه 2-و الإنابة إليه

كما قال تعالى:-(فَاعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ) و قال: (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ)88

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

(وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ)تحملنكم(شِقَاقِيٓ)مخالفتي و مشاقتي

(أَن يُصِيبَكُم)من العقوبات

(مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚوَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ)لا في الدار و لا في الزمان89

(وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ)عما اقترفتم من الذنوب

(ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ)فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح و الإنابة إليه بطاعته و ترك مخالفته.

(إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ)لمن تاب و أناب يرحمه فيغفر له و يتقبل توبته و يحبه

(وَدُودٞ)و معنى الـودود من أسمائه تعالى:-

أنه يحب عباده المؤمنين و يحبونه فهو«فعول»بمعنى«فاعل»و بمعنى«مفعول»

فتضجروا من نصائحه و مواعظه لهم 90

فـ(قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ)بدقة(كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ)من كلامك.و ذلك لبغضهم لما يقول و نفرتهم عنه

(وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ)أي:في نفسك لست من الكبار و الرؤساء بل من المستضعفين.

(وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ)جماعتك و قبيلتك(لَرَجَمۡنَٰكَۖ)

(وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ)ليس لك قدر فى صدورنا و لا احترام فى أنفسنا و إنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك91

فـــــــ(قَالَ)لهم مترفقا لهم:-

(يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ)

أى:كيف تراعونى لأجل رهطى و لا تراعونى لله فصار رهطى أعز عليكم من الله.

(وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ)نبذتم أمر الله(وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ)وراء ظهوركم و لم تبالوا به و لا خفتم منه.

(إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ)

لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السماء فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء92

(و) لما أعيوه و عجز عنهم قال:-

(وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ)حالتكم و دينكم.

(إِنِّي عَٰمِلٞۖ)مثابر على طريقتى و ما وهبنى ربى مِن دعوتكم إلى التوحيد

(سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ)يذلُّه

(وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ)فى قوله أنا أم أنتم؟

و يحل عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم و قد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب.

(وَٱرۡتَقِبُوٓاْ)ما يحل بى(إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ)ما يحل بكم93

(وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ)الصوت العالى

(فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ)باركين على رُكَبهم ميتين لا تسمع لهم صوتا و لا ترى منهم حركة94

(كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ) كأنهم ما أقاموا فى ديارهم و لا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب.

(أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ)إذ أهلكها الله و أخزاها

(كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ)أى: قد اشتركت هاتان القبيلتان فى السحق و البعد و الهلاك

*شبههم بثمود لأن عذابهم كان أيضا بالصيحة و كانوا قريبا منهم فى المنزل نظراءهم فى الكفر و قطع الطريق و كانوا أعرابا مثلهم.

و شعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه

و فى قصته من الفوائد و العبر شيء كثير:-

1-أن الكفار كما يعاقبون و يخاطبون بأصل الإسلام فكذلك بشرائعه و فروعه لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد

و إلى إيفاء المكيال و الميزان و جعل الوعيد مرتبا على مجموع ذلك.

2–أن نقص المكاييل و الموازين من كبائر الذنوب و تخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك و أن ذلك من سرقة أموال الناس

و إذا كان سرقتهم فى المكاييل و الموازين موجبة للوعيد فسرقتهم–على وجه القهر و الغلبة–من باب أولى

3–أن الجزاء من جنس العمل فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله عوقب بنقيض ذلك

و كان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله:(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)أى:فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

4–أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله و يقنع بالحلال عن الحرام و بالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة

و أن ذلك خير له لقوله:–(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)ففى ذلك من البركة و زيادة الرزق ما ليس فى التكالب على الأسباب المحرمة من المحق و ضد البركة.

5–أن ذلك من لوازم الإيمان و آثاره فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان فدل على أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم.

6–أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين و أنها من أفضل الأعمال حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها و تقديمها على سائر الأعمال و أنها تنهى عن الفحشاء و المنكر و هى ميزان للإيمان و شرائعه فبإقامتها تكمل أحوال العبد و بعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

7–أن المال الذى يرزقه الله الإنسان–و إن كان الله قد خوله إياه–فليس له أن يصنع فيه ما يشاء فإنه أمانة عنده عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق و الامتناع من المكاسب التى حرمها الله و رسوله لا كما يزعمه الكفار و من أشبههم:–أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون و يختارون سواء وافق حكم الله أو خالفه.

8–أن من تكملة دعوة الداعى وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به و أول منته عما ينهى غيره عنه كما قال شعيب عليه السلام:–(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

و لقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)

9–أن وظيفة الرسل و سنتهم و ملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة و الإمكان فيأتون بتحصيل المصالح و تكميلها أو بتحصيل ما يقدر عليه منها و بدفع المفاسد و تقليلها و يراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة و حقيقة المصلحة هى التى تصلح بها أحوال العباد و تستقيم بها أمورهم الدينية و الدنيوية

10–أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوما و لا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه و فى غيره ما يقدر عليه

11–أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين بل لا يزال مستعينا بربه متوكلا عليه سائلا له التوفيق و إذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه و مسديه و لا يعجب بنفسه لقوله:-

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

12–الترهيب بأخذات الأمم و ما جرى عليهم و أنه ينبغى أن تذكر القصص التى فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين فى سياق الوعظ و الزجر كما أنه ينبغى ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب و الحث على التقوى

13–أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه و يعفى عنه فإن الله تعالى يحبه و يوده و لا عبرة بقول من يقول « إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له و يعود عليه العفو و أما عود الود و الحب فإنه لا يعود » فإن الله قال(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

14–أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها و قد لا يعلمون شيئا منها و ربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه

و أن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام و المسلمين لا بأس بالسعى فيها بل ربما تعين ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة و الإمكان فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار و عملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد و الشعوب من حقوقهم الدينية و الدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضى على حقوقهم الدينية و الدنيوية و تحرص على إبادتها و جعلهم عمَلَةً و خَدَمًا لهم نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين و هم الحكام فهو المتعين و لكن لعدم إمكان هذه المرتبة فالمرتبة التى فيها دفع و وقاية للدين و الدنيا مقدمة و الله أعلم95

قصة موسى 96-99
(حوالى 1447 ق.م)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ)بن عمران

(بِـَٔايَٰتِنَا)

الدالة على صدق ما جاء به كالعصا و اليد و نحوهما من الآيات التى أجراها الله على يدى موسى عليه السلام

(وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)حجة ظاهرة بينة ظهرت ظهور الشمس96

(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ)أشراف قومه لأنهم المتبوعون و غيرهم تبع لهم

*فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التى أراهم إياها كما تقدم بسطها فى سورة الأعراف

و لكنهم (فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

بل هو ضال غاو لا يأمر إلا بما هو ضرر محض لا جرم–لما اتبعه قومه–أرداهم و أهلكهم97

يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

(يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ)كَذَلِكَ شَأْنُ الْمَتْبُوعِينَ يَكُونُونَ مُوفرين فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا قَالَ{ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ} [الأعراف: 38] وَ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الكَفَرة إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ:- {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ67رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب]

(وَبِئۡسَ)قبح(ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ)المدخل الذى يدخلونه98

(وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ)أى يلعنهم الله و ملائكته و الناس أجمعون فى الدنيا و الآخرة

*أَتْبَعْنَاهُمْ زِيَادَةً عَلَى مَا جَازَيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ لَعْنَةً فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ)اجتمع لهم و ترادف عليهم من:-1-عذاب الله 2-و لعنة الدنيا و الآخرة99

*و لما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم قال الله تعالى لرسوله:-

(ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ)لتنذر به و يكون آية على رسالتك و موعظة و ذكرى للمؤمنين

(مِنۡهَا قَآئِمٞ)عامر لم يتلف بل بقى من آثار ديارهم ما يدل عليهم

سنة الله فى اهلاك العباد بظلمهم 100-102

(وَ)منها(وَحَصِيدٞ)هالك داثر قد تهدمت مساكنهم و اضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر100

(وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ)بأخذهم بأنواع العقوبات

(وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ)بالشرك و الكفر و العناد

(فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ)فما نفعتهم

(ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ)و يطلبون منها أن تدفع عنهم الضر

(لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ)بعذابهم

*و هكذا كل من التجأ إلى غير الله لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد

التعقيب على القصص

(وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ)خسار و دمار بالضد مما خطر ببالهم101

(وَكَذَٰلِكَ)كما ذكر من إهلاك الأمم و أخذهم بالعذاب

(أَخۡذُ رَبِّكَ)إهلاكه و عذابه

(إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ)أخذ أهلها يقصمهم بالعذاب و يبيدهم و لا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء

(وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ)لمخالفتهم أمري و تكذيبهم برسلي

(إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ)بالعقوبة لـــ(أَلِيمٞ)موجع(شَدِيدٌ)

*البخاري 4686 - عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي(ليمهل) لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ(لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه)» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ:-

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: 102] 102

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات و إنجائنا المؤمنين

بعض مشاهد القيامة

(لَأٓيَةٗ)لعبرة و دليلا على أن أهل الظلم و الإجرام لهم العقوبة الدنيوية و العقوبة الأخروية

(لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ)

*{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غَافِرٍ:51]

وَقَالَ{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ13 وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إِبْرَاهِيمَ]

*ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة فقال:-

(ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ)

جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة و ليظهر لهم من عظمة الله و سلطانه و عدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

*أَوَّلُهُمْ وَ آخِرُهُمْ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ كَمَا قَالَ:-{وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الْكَهْفِ:47] .

(وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ)يشهده الله و ملائكته و جميع المخلوقين103

(وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ)إتيان يوم القيامة

(إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ)إذا انقضى أجل الدنيا و ما قدر الله فيها من الخلق فحينئذٍ ينقلهم إلى الدار الأخرى و يجرى عليهم أحكامه الجزائية كما أجرى عليهم فى الدنيا أحكامه الشرعية.

*مَا نُؤَخِّرُ إقَامَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إلَّا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَ قَضَاؤُهُ وَ قَدَرُهُ فِي وُجُودِ أُنَاس مَعْدُودِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ ضَرَبَ مُدَّةً مُعَيَّنَةً إذَا انْقَضَتْ وَ تَكَامَلَ وُجُودُ أُولَئِكَ الْمُقَدَّرِ خُرُوجُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّة آدَمَ أَقَامَ اللَّهُ السَّاعَةَ وَ لِهَذَا قَالَ:{وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ}أَيْ: لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهَا وَ لَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا

{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ}

يَقُولُ: يَوْمَ يَأْتِي هَذَا الْيَوْمُ وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ يَوْمَئِذٍ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النَّبَأ:38]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا} [طه:108]

*وَ فى البخارى806 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ:-

وَ لَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إلَّا الرُّسُلُ وَ دَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ:-اللهُم سَلّم سَلِّمْ104

(يَوۡمَ يَأۡتِ)ذلك اليوم و يجتمع الخلق

(لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ)حتى الأنبياء و الملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه

(فَمِنۡهُمۡ)أى:الخلق(شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

فالأشقياء هم:–الذين كفروا بالله و كذبوا رسله و عصوا أمره و السعداء هم:–المؤمنون المتقون.

*كَمَا قَالَ: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشُّورَى:7]105

(فَأَمَّا)جزاء(ٱلَّذِينَ شَقُواْ)حصلت لهم الشقاوة و الخزى و الفضيحة

(فَفِي ٱلنَّارِ)منغمسون فى عذابها مشتد عليهم عقابها

(لَهُمۡ فِيهَا)من شدة ما هم فيه

(زَفِيرٌ)فِي الْحَلْقِ (تَنَفُّسُهُمْ زَفِيرٌ)

(وَشَهِيقٌ)فِي الصَّدْرِ (أَخْذُهُمُ النَّفَسَ شَهِيقٌ)و هو أشنع الأصوات و أقبحها

لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ106

(خَٰلِدِينَ فِيهَا)أى: فى النار التى هذا عذابها

(مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ)

خالدين فيها أبدا إلا المدة التى شاء الله أن لا يكونوا فيها و ذلك قبل دخولها كما قاله جمهور المفسرين

فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذى قبل الدخول فيها.

*قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ:-مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا قَالَتْ:- "هَذَا دَائِمٌ دوامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ"قُلْتُ: وَ يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ:-الْجِنْسُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَوَاتٍ وَ أَرْضٍ كَمَا قَالَ{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}[إبْرَاهِيمَ:48]

وَ لِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}قَالَ:- تُبَدَّلُ سَمَاءٌ غَيْرَ هَذِهِ السَّمَاءِ وَ أَرْضٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأَرْضِ فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاءُ وَ تِلْكَ الْأَرْضُ.

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)فكل ما أراد فعله و اقتضته حكمته فعله تبارك و تعالى لا يرده أحد عن مراده.

*كَقَوْلِهِ{النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[الأَنْعَامِ: 128]

*وَ قَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنْ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ حَكَاهَا الشَّيْخُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ "زَادُ الْمَسِيرِ"وَ غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ وَ نَقَلَ كَثِيرًا مِنْهَا الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:- أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى العُصاة مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشافعين من الملائكة و النبيين و المؤمنين حِينَ يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ

ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فَتُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ وَ قَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ:-لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺبِمَضْمُونِ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَجَابِرٍ وَ أَبِي سَعِيدٍ وَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَ لَا يَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِيهَا وَ لَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهَا.وَ هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ قَدِيمًا وَ حَدِيثًا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ 107

(۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا)و هم أتباع الرسل أى:—حصلت لهم السعادة و الفلاح

(فَفِي الْجَنَّةِ)مأواهم الجنة

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)

*مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ هَا هُنَا: أَنْ دَوَامَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ الْمِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا

ثم أكد ذلك بقوله:—(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات نسأل الله الكريم من فضله.

*قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمَشِيئَةَ أَنَّ ثَمَّ انْقِطَاعًا أَوْ لَبْسًا أَوْ شَيْئًا بَلْ خَتَمَ لَهُ بِالدَّوَامِ وَ عَدَمِ الِانْقِطَاعِ.

كَمَا بَيَّنَ هُنَا أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ دَائِمًا مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ وَ أَنَّهُ بعدله وَحِكْمَتِهِ عَذَّبَهُمْ؛

وَ لِهَذَا قَالَ: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هُودٍ:107]كَمَا قَالَ{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[الأَنْبِيَاءِ:23]

وَ هُنَا طَيَّبَ الْقُلُوبَ و ثَبَّتَ المقصود بقوله:-{عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}

*مسلم2837-عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-"يُنَادِي مُنَادٍ:-إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا " فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

{وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 43] 108

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ:-(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ)

المشركون أي: لا تشك في حالهم و أن ما هم عليه باطل فليس لهم عليه دليل شرعي و لا عقلى و إنما دليلهم و شبهتهم أنهم (مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ)

و من المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلا عن أن يكون دليلا لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها خصوصا أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم و فساد أقوالهم فى أصول الدين فإن أقوالهم و إن اتفقوا عليها فإنها خطأ و ضلال.

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)

أى:لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم و إن كثر ذلك النصيب أو راق فى عينك فإنه لا يدل على صلاح حالهم فإن الله يعطى الدنيا من يحب و من لا يحب و لا يعطى الإيمان و الدين الصحيح إلا من يحب و الحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين و لا على ما خولهم الله و آتاهم من الدنيا109

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ)

يخبر تعالى أنه آتى موسى الكتاب الذي هو التوراة الموجب للاتفاق على أوامره و نواهيه و الاجتماع

و لكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافا أضر بعقائدهم و بجاماعتهم الدينية.

التحذير من الاختلاف فى القرآن 110-111

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ)بتأخيرهم و عدم معاجلتهم بالعذاب

(لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)بإحلال العقوبة بالظالم

و لكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة و بقوا في شك منه مريب.

و إذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به و أن يكونوا في شك منه مريب﴿١١٠﴾

(وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ)

أي: لا بد أن الله يقضى بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيجازى كلا بما يستحقه.

أوامر للنبى و للمؤمنين 112- 115

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ)من خير و شر

(خَبِيرٌ)فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها و جليلها﴿١١١﴾

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ)

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التى أوجبت اختلافهم و افتراقهم أمر نبيه محمدا ﷺ و من معه من المؤمنين أن:-

1-يستقيموا كما أمروا 2-فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع

3-و يعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة 4-و لا يزيغوا عن ذلك يمنة و لا يسرة و يدوموا على ذلك

(وَلَا تَطْغَوْا)بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)أى:لا يخفى عليه من أعمالكم شيء و سيجازيكم عليها﴿١١٢﴾

ففيه:-1-ترغيب لسلوك الاستقامة 2-و ترهيب من ضدها

و لهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال:-

(وَلَا تَرْكَنُوا)تميلوا(إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

1-لَا تُدهِنُوا

2-الرُّكُونُ إِلَى الشِّرْكِ.

3-لَا تَرْضَوْا أَعْمَالَهُمْ.

4-وَ لَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ:-لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّلَمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بِبَاقِى صَنِيعِهِمْ

5-و الرضا بما هو عليه من الظلم.

ففى هذه الآية:-

التحذير من الركون إلى كل ظالم و المراد بالركون الميل و الانضمام إليه بظلمه و موافقته على ذلك و الرضا بما هو عليه من الظلم.

فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟!! نسأل الله العافية من الظلم.

فإنكم إذا ملتم إليهم و وافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم:-

(فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ)إن فعلتم ذلك

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ)يمنعونكم من عذاب الله و لا يحصلون لكم شيئا من ثواب الله.

(ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)أى:لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم﴿١١٣﴾

(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ)يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة

(طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ)صباحا و مساء.أوله و آخره و يدخل في هذا صلاة الفجر و صلاتا الظهر و العصر

(وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ)و يدخل فى ذلك صلاة المغرب و العشاء

و يتناول ذلك قيام الليل فإنها مما تزلف العبد و تقربه إلى الله تعالى.

(إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ)أى: فهذه الصلوات الخمس و ما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات

و هي: مع أنها حسنات تقرب إلى الله و توجب الثواب فإنها تذهب السيئات و تمحوها

و المراد بذلك:-الصغائر كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ

مثل قوله:«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»

بل كما قيدتها الآية التى فى سورة النساء و هى قوله تعالى:-

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا)

*البخارى528 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ
أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ(يمر من أمام بابه) يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِى مِنْ دَرَنِهِ
قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ(وسخه) شَيْئًا قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا»(الذنوب الصغيرة)
*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى
526 - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا(هو أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري ﷺ)أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً
فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺفَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

{أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114]
فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»
(طرفي النهار) الغداة والعشي أي. (زلفا من الليل) ساعات من أوله جمع زلفة وهي القربة وأزلفه قربه. (يذهبن) يكفرن ويمحين. (السيئات) الذنوب الصغيرة على أن التساهل في الصغائر قد يوقع في الكبائر وعندئذ لا تكفرها الأعمال الصالحة.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من:-

1-لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم

2-و عدم مجاوزته و تعديه

3-و عدم الركون إلى الذين ظلموا

4–و الأمر بإقامة الصلاة و بيان أن الحسنات يذهبن السيئات الجميع

(ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ)موعظة(لِلذَّٰكِرِينَ)لمن اتعظ بها و تذكر.

*يفهمون بها ما أمرهم الله به و نهاهم عنه و يمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور و السيئات و لكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس و الصبر عليها ﴿١١٤﴾

و لهذا قال:–(وَٱصۡبِرۡ)احبس نفسك على طاعة الله و عن معصيته و إلزامها لذلك و استمر و لا تضجر.
و اصبر على ما تَلْقى من الأذى من مشركى قومك

(فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)

بل يتقبل الله عنهم أحسن الذى عملوا و يجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون

و في هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت و فترت﴿١١٥﴾

(فَلَوۡلَا)فهلاَّ (كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ) وُجد من القرون الماضية(أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ)بقايا

سنة الله فى اهلاك الأمم السابقة 116-119

(يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ)

من أهل الخير و الصلاح ينهون أهل الكفر عن كفرهم و عن الفساد فى الأرض

(إِلَّا قَلِيلٗا)لم يوجد من أولئك الأقوام إلا قليل ممن آمن

(مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ)

فنجَّاهم الله بسبب ذلك مِن عذابه حين أخذ الظالمين لم يوجد من أولئك الأقوام إلا قليل ممن آمن
*لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل و أن أكثرهم منحرفون حتى أهل الكتب الإلهية و ذلك كله يقضى على الأديان بالذهاب و الاضمحلال
*ذكر أنه لولا أنه جعل فى القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى و ينهون عن الفساد و الردى فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان و لكنهم قليلون جدا.
و غاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين و قيامهم بما قاموا به من دينهم و بكون حجة الله أجراها على أيديهم ليهلك من هلك عن بيِّنة و يحيا من حيَّ عن بيِّنة

(وَ)لكن(وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ)اتبعوا ما هم فيه من النعيم و الترف و لم يبغوا به بدلا.

(وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ)ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه فلذلك حق عليهم العقاب و استأصلهم العذاب.

و فى هذا:–حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس

1–قائمون بدين الله 2–يدعون من ضل إلى الهدى 3–و يصبرون منهم على الأذى

4–و يبصرونهم من العمى.

و هذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون و صاحبها يكون إماما فى الدين إذا جعل عمله خالصا لرب العالمين﴿١١٦﴾

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ)أهل(ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ)منه لهم(وَأَهۡلُهَا)و الحال أنهم(مُصۡلِحُونَ)

أى:مقيمون على الصلاح مستمرون عليه فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا و قامت عليهم حجة الله.

و يحتمل أن المعنى:–

و ما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق إذا رجعوا و أصلحوا عملهم فإن الله يعفو عنهم و يمحو ما تقدم من ظلمهم.

*ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَ هِىَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا وَ لَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بَأْسُهُ وَ عَذَابُهُ قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ كَمَا قَالَ{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}[هُود: 101] و قال{وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ}[فصلت: 46]﴿١١٧﴾

وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

12-سورة يوسف-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

(وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ)كلهم(أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ)على الدين الإسلامى فإن مشيئته غير قاصرة و لا يمتنع عليه شيء يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ كُلِّهم أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ:-إِيمَانٍ أَوْ كُفْرَانٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[يُونُس: 99]

و لكنه اقتضت حكمته فقال:-(وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ)

مخالفين للصراط المستقيم متبعين للسبل الموصلة إلى النار كل يرى الحق فيما قاله و الضلال فى قول غيره.

(إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ)

فهداهم إلى العلم بالحق و العمل به و الاتفاق عليه فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة و تداركتهم العناية الربانية و التوفيق الإلهى. و أما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

(وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ)اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم:-

السعداء و الأشقياء و المتفقون و المختلفون و الفريق الذين هدى الله

و الفريق الذين حقت عليهم الضلالة ليتبين للعباد عدله و حكمته و ليظهر ما كمن فى الطباع البشرية من الخير و الشر و لتقوم سوق الجهاد والعبادات التى لا تتم و لا تستقيم إلا بالامتحان و الابتلاء.

(وَ)لأنه(وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ)

و بهذا يتحقق وعد ربك فى قضائه و قدره:-

أنه سبحانه سيملأ جهنم من الجن و الإنس الذين اتبعوا إبليس و جنده و لم يهتدوا للإيمان.

*فلا بد أن ييسر للنار أهلا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

*يُخبِرُ تَعالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَ قَدَرِهُ لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَ حِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ وَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنَ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ.

وَ فِي البخارى4850عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺتَحَاجَّتِ(تخاصمت و الله تعالى أعلم بذلك التخاصم)الجَنَّةُ وَ النَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ:أُوثِرْتُ(اختصصت)بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَ المُتَجَبِّرِينَ (جمع متجبر وهو المتعاظم بما ليس فيه والذى لا يكترث بأمره.)

وَ قَالَتِ الجَنَّةُ:مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَ سَقَطُهُمْ(الساقطون من أعين الناس والمحتقرون لديهم لفقرهم وضعفهم وقلة منزلتهم)

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ:-

أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ(ممن استحق العقوبة واكتسب أسبابها)مِنْ عِبَادِي وَ قَالَ لِلنَّارِ:-

إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ:-

فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَ يُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَ لاَ يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَ أَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا "

*لما ذكر فى هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال:–

من حكم القصص القرآنى 120-123

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ)

أي: قلبك ليطمئن و يثبت و يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فإن النفوس تأنس بالاقتداء و تنشط على الأعمال و تريد المنافسة لغيرها و يتأيد الحق بذكر شواهده و كثرة من قام به.

(وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ)السورة

(ٱلْحَقُّ)اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

(وَمَوْعِظَةٌ)يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة

(وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)و يتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

و أما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ و أنواع التذكير﴿١٢٠﴾

و لهذا قال:–(وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)بعد ما قامت عليهم الآيات

(ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ)حالتكم التى أنتم عليها

(إِنَّا عَٰمِلُونَ)على ما كنا عليه﴿١٢١﴾

(وَٱنتَظِرُوٓاْ)ما يحل بنا(إِنَّا مُنتَظِرُونَ)ما يحل بكم.

*و قد فصل الله بين الفريقين و أرى عباده نصره لعباده المؤمنين و قمعه لأعداء الله المكذبين﴿١٢٢﴾

(وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)ما غاب فيهما من الخفايا و الأمور الغيبية.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ)من الأعمال و العمال فيميز الخبيث من الطيب

(فَٱعۡبُدۡهُ)أى:قم بعبادته و هى جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه

(وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ)على الله فى ذلك.

(وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ)

من الخير و الشر بل قد أحاط علمه بذلك و جرى به قلمه و سيجرى عليه حكمه و جزاؤه(١٢٣)

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة و السلام-مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الٓر)يخبر تعالى أن آيات القرآن هى(ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ)أى:البين الواضحة ألفاظه و معانيه(١)

و من بيانه و إيضاحه:-(إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا)بأشرف الألسنة و أبينها اللسان العربى المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة و كل هذا الإيضاح و التبيين

من صفات القرآن 1-3

(لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)أى:لتعقلوا حدوده و أصوله و فروعه و أوامره و نواهيه.

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم و اتصفت قلوبكم بمعرفتها أثمر ذلك⇦عمل الجوارح و الانقياد إليه

و (لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)تزداد عقولكم بتكرر المعانى الشريفة العالية على أذهانكم فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها و أكمل(٢)

(نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ)و ذلك لصدقها و سلاسة عبارتها و رونق معانيها

*الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن راهويه كما فى المطالب العالية ص440

عن سعد في قول الله عز وجل:{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}الآية.قال:-

أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺفتلاه عليهم زمانا فقالوا:-

يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}إلى قوله{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}

فتلاها رسول الله ﷺزمانا فقالوا:-يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا}[الزمر 1]

(بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ)

بما اشتمل عليه هذا القرآن الذى أوحيناه إليك و فضلناك به على سائر الأنبياء و ذاك محض منَّة من الله و إحسان

(وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ)أى:-ما كنت تدرى ما الكتاب و لا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك و لكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا.

*و لما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص و أنها أحسن القصص على الإطلاق (٣)

فلا يوجد من القصص فى شيء من الكتب مثل هذا القرآن ذكر قصه يوسف و أبيه و إخوته القصة العجيبة الحسنة فقال:-

* البخارى3390-عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-
«الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»
*و اعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص فى هذا الكتاب
ثم ذكر هذه القصة و بسطها و ذكر ما جرى فيها فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة
فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر فى الإسرائيليات التى لا يعرف لها سند و لا ناقل و أغلبها كذب
فهو مستدرك على الله و مكمل لشيء يزعم أنه ناقص و حسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا
فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت فى كثير من التفاسير من الأكاذيب و الأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله
تعالى بشيء كثير.
فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه و يدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبى ﷺ ينقل.

رؤيا يوسف و رأى أبيه 4-6

(إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ)يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل:-
(يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ)
فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من:-الارتفاع فى الدنيا و الآخرة.
و هكذا إذا أراد الله أمرا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة توطئة له و تسهيلا لأمره واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق لطفا بعبده وإحسانا إليه
فأوَّلها يعقوب بأن الشمس:- أمه و القمر:- أبوه و الكواكب:- إخوته
و أنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له و يسجدون له إكراما و إعظاما
و أن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له و اصطفائه له و إتمام نعمته عليه بالعلم و العمل
و التمكين فى الأرض ﴿٤﴾
و أن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له و صاروا تبعا له فيها
(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)و قال (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)
و قال فى آخرها (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ)
من الفوائد:-
1-أن هذه القصة من أحسن القصص و أوضحها و أبينها لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال
و من محنة إلى محنة و من محنة إلى منحة و منّة و من ذل إلى عز و من رقٍّ إلى ملك
و من فرقة و شتات إلى اجتماع و ائتلاف و من حزن إلى سرور و من رخاء إلى جدب
و من جدب إلى رخاء و من ضيق إلى سعة و من إنكار إلى إقرار فتبارك من قصها فأحسنها و وضحها و بيَّنها.
2-أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا و أن علم التعبير من العلوم المهمة التى يعطيها الله من يشاء من عباده
و إن أغلب ما تبنى عليه المناسبة و المشابهة في الاسم و الصفة فإن رؤيا يوسف التى رأى أن الشمس

و القمرو أحد عشر كوكبا له ساجدين وجه المناسبة فيها:-

أن هذه الأنوار هى زينة السماء و جمالها و بها منافعها فكذلك الأنبياء و العلماء زينة للأرض و جمال

و بهم يهتدى فى الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار و لأن الأصل أبوه و أمه

و إخوته هم الفرع فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا و جرما لما هو فرع عنه.

فلذلك كانت الشمس أمه و القمر أباه و الكواكب إخوته.

و من المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث فلذلك كانت أمه و القمر و الكواكب مذكرات فكانت لأبيه و إخوته

و من المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له و المسجود له معظم محترم

فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه و إخوته.

و من لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلا فى العلم و الفضائل الموجبة لذلك و لذلك قال له أبوه:-

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾

*و من المناسبة فى رؤيا الفتيين:-أنه أول رؤيا الذى رأى أنه يعصر خمرا

أن الذى يعصر فى العادة يكون خادما لغيره و العصر يقصد لغيره

فلذلك أوَّله بما يؤول إليه أنه يسقى ربه و ذلك متضمن لخروجه من السجن.

*و أوَّل الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه بأن جلدة رأسه و لحمه و ما في ذلك من المخ أنه هو الذى يحمله و أنه سيبرز للطيور بمحل تتمكن من الأكل من رأسه فرأى من حاله أنه سيقتل و يصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه و ذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

*و أوَّل رؤيا الملك للبقرات و السنبلات بالسنين المخصبة و السنين المجدبة

و وجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية و مصالحها و بصلاحه تصلح و بفساده تفسد

و كذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية و استقامة أمر المعاش أو عدمه.

و أما البقر فإنها تحرث الأرض عليها و يستقى عليها الماء و إذا أخصبت السنة سمنت

و إذا أجدبت صارت عجافا و كذلك السنابل فى الخصب تكثر و تخضر و فى الجدب تقل و تيبس و هى أفضل غلال الأرض.

3-ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة و هو لم يقرأ كتب الأولين و لا دارس أحدا. يراه قومه بين أظهرهم صباحا ومساء و هو أمِّيٌّ لا يخط و لا يقرأ

و هى موافقة لما فى الكتب السابقة و ما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون.

4-أنه ينبغى البعد عن أسباب الشر و كتمان ما تخشى مضرته لقول يعقوب ليوسف:-

﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾

5–أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله:–(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)

6–أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته و أقاربه و أصحابه و أنه ربما شملتهم و حصل لهم ما حصل له بسببه كما قال يعقوب فى تفسيره لرؤيا يوسف

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ)

و لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز و التمكين فى الأرض و السرور و الغبطة ما حصل بسبب يوسف.

7–أن العدل مطلوب فى كل الأمور لا فى معاملة السلطان رعيته و لا فيما دونه حتى فى معاملة الوالد لأولاده فى المحبة و الإيثار و غيره و أن فى الإخلال بذلك يختل عليه الأمر و تفسد الأحوال

و لهذا لما قدم يعقوب يوسف فى المحبة و آثره على إخوته⇦جرى منهم ما جرى على أنفسهم و على أبيهم و أخيهم

و لهذا قال:-

قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

و لما بان تعبيرها ليوسف قال له أبوه:-(قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ)تحكى و تروى

(رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا)حسدا من عند أنفسهم أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

*البخارى 6985 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ:-أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-

«إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ(الإضافة إلى الله تعالى تشريفا)فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا وَ لْيُحَدِّثْ بِهَا وَ إِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا وَ لاَ يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ» (لا يصيبه أذى بسببه)

(إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

لا يفتر عنه ليلا و لا نهارا و لا سرا و لا جهارا فالبعد عن الأسباب التى يتسلط بها على العبد أولى

فامتثل يوسف أمر أبيه و لم يخبر إخوته بذلك بل كتمها عنهم 5

(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ)يصطفيك و يختارك(رَبُّكَ)بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة و المناقب الجميلة

(وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ)تعبير الرؤيا و بيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية و نحوها

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ)فى الدنيا و الآخرة بأن يؤتيك فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة

حادثة القائه فى الجب 7-20

(وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ)

حيث أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة دينية و دنيوية.

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ)

علمه محيط بالأشياء و بما احتوت عليه ضمائر العباد من البر و غيره فيعطى كلا ما تقتضيه حكمته و حمده

فإنه(حَكِيمٌ)يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها 6

(لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ)عبر و أدلة على كثير من المطالب الحسنة

(لِّلسَّآئِلِينَ)أى:لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات

و العبر و أما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات و لا فى القصص و البينات۝٧

(إِذۡ قَالُواْ)فيما بينهم:-(لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ)بنيامين أى: شقيقه لأمه و إلا فكلهم إخوة

(أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ)جماعة فكيف يفضلهما علينا بالمحبة و الشفقة

(إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ)خطأ(مُّبِينٍ)بيِّن حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه و لا أمر نشاهده۝٨

(ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ)غيبوه عن أبيه(أَرۡضٗا)فى أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها(ليس ايقاعه على الأرض)

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين :-

1-(يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ)يتفرغ لكم و يقبل عليكم بالشفقة و المحبة فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلا لا يتفرغ لكم

(وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ)من بعد هذا الصنيع

(قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ)تتوبون إلى الله و تستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم:-

1-تسهيلا لفعله 2-و إزالة لشناعته 3-و تنشيطا من بعضهم لبعض

من العبر:-

1-الحذر من شؤم الذنوب و أن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة و لا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم

فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه و بين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل و كذبوا عدة مرات

و زوروا على أبيهم فى القميص و الدم الذى فيه و فى إتيانهم عشاء يبكون

و لا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها فى تلك المدة بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف

و كلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب و الافتراء ما حصل و هذا شؤم الذنب و آثاره التابعة و السابقة و اللاحقة

2- أن بعض الشر أهون من بعض و ارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما

فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا و قال قائل منهم:-

(لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ)كان قوله أحسن منهم و أخف و بسببه خف عن إخوته الإثم الكبير﴿٩﴾

(قَالَ قَآئِلٌ)من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده:-(لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ)

فإن قتله أعظم إثما و أشنع و المقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل و لكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه

(وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ)أسفل(ٱلْجُبِّ)

و تتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم بل على أنه عبد مملوك آبق منكم لأجل أن

(يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ)المارّة من المسافرين(ليست الآلة المعروفة)

(إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)عازمين على فعل ما تقولون.

*الذين يريدون مكانا بعيدا فيحتفظون فيه.

و هذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف و أبرهم و أتقاهم في هذه القضية فإن بعض الشر أهون من بعض

و الضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل

*قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ:-لَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى أمر عظيم من:-

1-قطيعة الرحم 2-و عقوق الْوَالِدِ 3-وَ قِلَّةِ الرَّأْفَةِ بِالصَّغِيرِ الضَّرَعِ الَّذِى لَا ذَنْبَ لَهُ

وَ بِالْكَبِيرِ الْفَانِي ذِى الْحَقِّ وَ الْحُرْمَةِ وَ الْفَضْلِ وَ خَطَرُهُ عِنْدَ اللَّهِ مَعَ حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ

لِيُفَرِّقُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ ابْنِهِ وَ حَبِيبِهِ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ و رِقَّة عَظْمِهِ مَعَ مَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ فِيمَنْ أَحَبَّهُ طِفْلًا صَغِيرًا

وَ بَيْنَ أَبِيهِ عَلَى ضَعْفِ قُوَّتِهِ وَ صِغَرِ سَنِّهِ وَ حَاجَتِهِ إِلَى لُطْفِ وَالِدِهِ وَ سُكُونِهِ إِلَيْهِ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ فَقَدِ احْتَمَلُوا أَمْرًا عَظِيمًا﴿١٠﴾

*فلما اتفقوا على هذا الرأى:-

(قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ)قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم

أى: لأى شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب و لا موجب؟

(وَ)الحال(وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ)و نحن نريد له الخير و نشفق عليه و نرعاه و نخصه بخالص النصح؟

أى:-مشفقون عليه نود له ما نود لأنفسنا و هذا يدل على أن يعقوب ﷺلا يترك يوسف يذهب مع إخوته

للبرية و نحوها﴿١١﴾

*فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم ذكروا له من مصلحة يوسف و أنسه الذى يحبه أبوه

له ما يقتضى أن يسمح بإرساله معهم فقالوا:-

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ)يتنزه في البرية و يستأنس (وَيَلْعَبْ)يسعى و ينشط

(وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ)سنراعيه و نحفظه من أذى يريده﴿١٢﴾

فأجابهم بقوله:-

1-(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ)

أي: مجرد ذهابكم به يحزننى و يشق على لأننى لا أقدر على فراقه و لو مدة يسيرة فهذا مانع من إرساله

2-(وَ)مانع ثان و هو أنى:-

(وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ)فى حال غفلتكم عنه لأنه صغير لا يمتنع من الذئب﴿١٣﴾

(قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ)جماعة حريصون على حفظه

(إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ)أى:-لا خير فينا و لا نفع يرجى منا إن أكله الذئب و غلبنا عليه﴿١٤﴾

*فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله و عدم الموانع سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ)لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه

(وَأَجْمَعُوٓا۟)عزموا على(أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ)

كما قال قائلهم السابق ذكره و كانوا قادرين على ما أجمعوا عليه فنفذوا فيه قدرتهم و ألقوه فى الجب

ثم إن الله لطف به(وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ)أعلمناه بطريق خفى سريع و هو فى تلك الحال الحرجة

هذا دليل على نبوته و أنه نبىء و هو صغير إذ النبوة لا يشترط لها بلوغ الرشد كالرسالة.

*و قيل الهاء فى (إِلَيْهِ) تعود إلى يعقوب وعليه فلا إشكال إذ هو نبى و رسول ﷺ

(لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا)سيكون منك معاتبة لهم و إخبار عن أمرهم هذا

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)يُحِسُّون بذلك الأمر و لا يشعرون به ففيه بشارة له بأنه:-

1-سينجو مما وقع فيه 2-و أن الله سيجمعه بأهله و إخوته على وجه العز و التمكين له فى الأرض15

(وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً)فى وقت العِشاء من أول الليل ليكون إتيانهم متأخرا عن عادتهم

(يَبْكُونَ)و بكاؤهم دليلا لهم و قرينة على صدقهم16

فـــ(قَالُوا۟)—متعذرين بعذر كاذب—(يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)إما على الأقدام أو بالرمى و النضال

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا)

زادنا و ثيابنا توفيرا له و راحة فلم نقصِّر فى حفظه بل تركناه فى مأمننا و ما فارقناه إلا وقتًا يسيراً

(فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ)فى حال غيبتنا عنه فى استباقنا

(وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا)تعذرنا بهذا العذر و الظاهر أنك لا تصدقنا لما فى قلبك من :-

1-الحزن على يوسف 2-و الرقة الشديدة عليه.

(وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ)و لكن عدم تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقى و كل هذا تأكيد لعذرهم 17

(زعموا أن الذئب أكله (وَ)مما أكدوا به قولهم أنهم:-

(وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ)ملطخًا(بِدَمٍ كَذِبٍ)غير دم يوسف ليشهد على صدقهم
فكان دليلا على كذبهم لأن القميص لم يُمَزَّقْ فلم يصدقهم أبوهم بذلك

و (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ)زينت(لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا)قبيحا فى التفريق بينى و بينه .

*لأنه رأى من القرائن و الأحوال و من رؤيا يوسف التى قصّها عليه ما دلّه على ما قال.

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)لا جزع فيه و لا شكوى إلى الخلق

أما أنا فوظيفتى سأحرص على القيام بها و هى أنى أصبر على هذه المحنة صبرا جميلا سالما من:-

1-السخط 2-و التَّشكِّى إلى الخلق

(وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)و أستعين الله على ذلك لا على حولى و قوتى فوعد من نفسه هذا الأمر

و شكى إلى خالقه فى قوله:-

(إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل لأن النبى إذا وعد وفى.

*البخارى4690 عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ كُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-
«إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَ إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِى اللَّهَ وَ تُوبِي إِلَيْهِ»
قُلْتُ: إِنِّي وَ اللَّهِ لاَ أَجِدُ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18]
وَ أَنْزَلَ اللَّهُ:{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} العَشْرَ الآيَاتِ

*مكث يوسف في الجب ما مكث حتى(وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ)قافلة تريد مصر

(فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ)فرطهم و مقدمهم الذى يعس لهم المياه و يسبرها و يستعد لهم بتهيئة الحياض و نحو ذلك

(فَأَدْلَىٰ)ذلك الوارد(دَلْوَهُۥ)فتعلق فيه يوسف عليه السلام و خرج

(قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ)استبشر و قال: هذا غلام نفيس

(وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً)

و أخفى الواردُ وأصحابه يوسفَ عن بقية المسافرين فلم يظهروه لهم و قالوا:-إن هذه بضاعة استبضعناها

و كان إخوته قريبا منه فاشتراه السيارة منهم(وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩)

(وَشَرَوۡهُ)باعه إخوته للواردين من المسافرين(بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ)قليل جدا من الدراهم

فسره بقوله:(دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ)و ذلك أنهم لا يعلمون منزلته عند الله.

*لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه و إبعاده عن أبيه و لم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه

و المعنى في هذا:-أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يُسِرُّوا أمره و يجعلوه من جملة بضائعهم التى معهم حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم فاشتروه منهم بذلك الثمن و استوثقوا منهم فيه لئلا يهرب و الله أعلم

فتنة امرأة العزيز 21-35

من الفوائد:-

أن الشيء إذا تداولته الأيدى و صار من جملة الأموال و لم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع

أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال

فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها

و بقي عند سيده غلاما رقيقا و سماه الله شراء و كان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم ٢٠

(وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ)

أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر و باعوه بها فاشتراه عزيز مصر(و هو الوزير)

فلما اشتراه أعجب به و وصى عليه امرأته و قال:-

(أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ)

1-إما(أَن يَنفَعَنَآ)كنفع العبيد بأنواع الخدم

2-(أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ)نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا و لعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ)

كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر و يكرمه هذا الإكرام جعلنا هذا مقدمة لتمكينه فى الأرض من هذا الطريق.

(وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ)

إذا بقى لا شغل له و لا همَّ له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علما كثيرا من علم الأحكام و علم التعبير و غير ذلك.

(وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ)أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطل و لا يغلبه مغالب

و كما أنجينا يوسف و جعلنا عزيز «مصر» يَعْطِف عليه فكذلك مكنَّا له فى أرض «مصر» و جعلناه على خزائنها و لنعلِّمه تفسير الرؤى فيعرف منها ما سيقع مستقبلا.

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)

فلذلك يجرى منهم و يصدر ما يصدر فى مغالبة أحكام الله القدرية و هم أعجز و أضعف من ذلك(٢١)

(وَلَمَّا بَلَغَ)يوسف(أَشُدَّهُۥٓ)

كمال قوته المعنوية و الحسية و صلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة و الرسالة.

(ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ)جعلناه نبيا رسولا و عالما ربانيا

(وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ)فى :-

1-عبادة الخالق ببذل الجهد و النصح فيها

2-و إلى عباد الله ببذل النفع و الإحسان إليهم

نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا.

و دل هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان فأعطاه الله الحكم بين الناس و العلم الكثير و النبوة(٢٢)

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

ثلاثة أرباع الحزب 24

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته و صبره عليها أعظم أجرا لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل فقدم محبة الله عليها

و أما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار بمنزلة:-

الأمراض و المكاره التي تصيب العبد بغير اختياره و ليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها

و ذلك أن يوسف ﷺ بقي مكرما في بيت العزيز و كان له من الجمال و الكمال و البهاء ما أوجب ذلك

أن (وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ)و دعت امرأة العزيز -برفق و لين

هو غلامها و تحت تدبيرها و المسكن واحد يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد و لا إحساس بشر.

(وَ)زادت المصيبة بأن (وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ)

و صار المحل خاليا و هما آمنان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب و قد دعته إلى نفسها

(وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ)أي: افعل الأمر المكروه و أقبل إليَّ

1-و مع هذا فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه و بين معارفه

2-و هو أسير تحت يدها و هي سيدته

3-و فيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك

4-و هو شاب عزب

5–و قد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله مع وجود الداعى القوى فيه لأنه قد هم فيها هما تركه لله و قدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء و رأى من برهان ربه–و هو ما معه من العلم و الإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله–ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة

و (قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ)أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح لأنه مما يسخط الله و يبعد منه

(إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ)

و لأنه خيانة فى حق سيدى الذى أكرم مثواى.فلا يليق بى أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة

*وَ كَانُوا يُطْلِقُونَ "اَلرَّبَّ" عَلَى السَّيِّدِ وَ الْكَبِيرِ أَىْ:-إِنَّ بَعْلَكِ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَاىَ أَىْ:-مَنْزِلِي وَ أَحْسَنَ إِلَيَّ

(إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)و هذا من أعظم الظلم و الظالم لا يفلح

و الحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله و مراعاة حق سيده الذى أكرمه و صيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه23

(وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ)(Î)لتبطش به ضرباً-و لقد مالت نفسها لفعل الفاحشة

(وَهَمَّ بِهَا)ليدفع صولتها عليه-و حدَّثت يوسفَ نفسُه حديث خطرات للاستجابة

من الفوائد:-

الهمَّ الذى همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يقربه إلى الله زلفى لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء و هو طبيعة لأغلب الخلق فلما قابل بينه و بين محبة الله و خشيته

غلبت محبة الله و خشيته داعى النفس و الهوى.فكان ممن(خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

و من السبعة الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله أحدهم:–

« رجل دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال: إنى أخاف الله »

و إنما الهم الذى يلام عليه العبد الهم الذى يساكنه و يصير عزما ربما اقترن به الفعل.

(لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ)ألهمه ربّه أن الخير فى عدم ضربها.

*و كذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذى فى قلبه يقتضى منه امتثال الأوامر و اجتناب الزواجر

*خطرات حديث النفس حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق

القاسمى:(الهم):يكون بمعنى القصد و الإرادة و يكون فوق الإرادة و دون العزم إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر و الإزماع عليه و بالعزم:-القصد إلى إمضائه فهو أول العزيمة.

وهذا معنى قولهم: الهم همان:-1-هم ثابت معه عزم و عقد و رضا و هو مذموم مؤاخذ به

2-و همّ بمعنى خاطر و حديث نفس من غير تصميم و هو غير مؤاخذ به.

لأنه خطور المناهى فى الصدور و تصورها فى الأذهان لا مؤاخذة بها ما لم توجد فى الأعيان.

ثم أورد البغوى ها هنا حديث أبي هريرة فى البخارى 6491-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:-قَالَ:-«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ(قدر)الحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ (وضحها و كشف اللبس عنها و فصل حكمها)فَمَنْ هَمَّ(قصد و حدث نفسه)بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا (الحسنة لعائق حال بينه و بين فعلها أو السيئة خوفا من الله ﷻ)كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ(مثل)إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً(لم تنقص بسبب الهم و القصد إلى فعلها) فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»

من الفوائد:-

أن من دخل الإيمان قلبه و كان مخلصا لله فى جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه و صدق إخلاصه من أنواع السوء و الفحشاء و أسباب المعاصى ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله.

(وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

على قراءة من قرأها بكسر اللام و من قرأها بالفتح فإنه من إخلاص الله إياه و هو متضمن لإخلاصه هو بنفسه فلما أخلص عمله لله أخلصه الله و خلصه من السوء و الفحشاء.

(كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ)و الجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء و الفحشاء

(إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ)

لأنه من عباده المخلصين له فى عباداتهم الذين أخلصهم الله و اختارهم و اختصهم لنفسه و أسدى عليهم من النعم و صرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه

من الفوائد:—

الحذر من الخلوة بالنساء التى يخشى منهن الفتنة و الحذر أيضا من المحبة التى يخشى ضررها

فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحّدها بيوسف و حبها الشديد له الذى ما تركها حتى راودته تلك المراودة ثم كذبت عليه فسجن بسببها مدة طويلة 24

(وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ)و لما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة ذهب ليهرب عنها و يبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص و يهرب من الفتنة

فبادرت إليه و تعلقت بثوبه(وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ)فشقت(مِن دُبُرٖ)من الخلف

فلما وصلا إلى الباب فى تلك الحال(وَأَلۡفَيَا)وجدا(سَيِّدَهَا)أى:زوجها

(لَدَا ٱلۡبَابِۚ)فرأى أمرا شق عليه فبادرت إلى الكذبأن المراودة قد كانت من يوسف و قالت:—

(قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا)

و لم تقل «من فعل بأهلك سوءا»تبرئة لها و تبرئة له أيضا من الفعل.و إنما النزاع عند الإرادة و المراودة

(إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)

من الفوائد:–

أنه ينبغى للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة و أسباب معصية أن يفر منه و يهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من المعصية لأن يوسف عليه السلام–لما راودته التى هو فى بيتها–فر هاربا يطلب الباب ليتخلص من شرها 25

*فبرأ نفسه مما رمته به:–(قَالَ)يوسف(هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ)هى التى طلبت منى ذلك

فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما و لم يعلم أيهما.

و لكن الله تعالى جعل للحق و الصدق علامات و أمارات تدل عليه قد يعلمها العباد و قد لا يعلمونها

فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لنبيه وصفيه يوسف

(وَشَهِدَ شَاهِدٞ)صبى فى المهد

(مِّنۡ أَهۡلِهَآ)فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق فقال:–

(إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ)شُقَّ(مِن قُبُلٖ)من الأمام

(فَصَدَقَتۡ)فى اتِّهامها له

(وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج و أنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب26

(وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ)شُقَّ(مِن دُبُرٖ)من الخلف

(فَكَذَبَتۡ)فى قولها

(وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)لأن ذلك يدل على هروبه منها و أنها هى التى طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب27

(فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ)شُقَّ(مِن دُبُرٖ)من الخلف.عرف بذلك صدق يوسف و براءته و أنها هى الكاذبة.

فـ(قَالَ)لها سيدها:–

(إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ)إنَّ هَذَا الْبُهْتَ و اللَّطخ الَّذِى لَطَّخْتِ عِرْضَ هَذَا الشَّابِّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكُنَّ

*و هل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت و فعلت و رمت به نبى الله يوسف عليه السلام

(إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ)

من الفوائد:–

أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه فلو تخاصم رجل و امرأته فى شيء من أوانى الدار فما يصلح للرجل فإنه للرجل و ما يصلح للمرأة فهو لها إذا لم يكن بينة و كذا لو تنازع نجار وحداد فى آلة حرفتهما من غير بينة و العمل بالقافة فى الأشباه و الأثر من هذا الباب فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة و حكم بها فى قد القميص و استدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف و كذبها.

و مما يدل على هذه القاعدة أنه استدل بوجود الصُّواع فى رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة و لا إقرار فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة فإنه يحكم عليه بالسرقة و هذا أبلغ من الشهادة

و كذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر أو وجود المرأة التى لا زوج لها و لا سيد حاملا فإنه يقام بذلك الحد ما لم يقم مانع منه و لهذا سمى الله هذا الحاكم شاهدا فقال:(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) ﴿٢٨﴾

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف:-

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا)اترك الكلام فيه و تناسه و لا تذكره لأحد طلبا للستر على أهله

(وَٱسْتَغْفِرِى)أيتها المرأة

(لِذَنۢبِكِ)فأمر يوسف بالإعراض و هى بالاستغفار و التوبة.

(إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ)الآثمين فى مراودة يوسف عن نفسه و فى افترائك عليه29

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ) يعنى:أن الخبر اشتهر و شاع فى البلد و تحدث به النسوة فجعلن يلمنها و يقلن:-

(ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ)

أى:هذا أمر مستقبح هى امرأة كبيرة القدر و زوجها كبير القدر و مع هذا لم تزل تراود فتاها الذى تحت يدها و فى خدمتها عن نفسه.و مع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغا عظيما.

(قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)أى:-وصل حبه إلى شغاف قلبها و هو باطنه و سويداؤه و هذا أعظم ما يكون من الحب

(إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)حيث وجدت منها هذه الحالة التى لا تنبغى منها و هى حالة تحط قدرها و تضعه عند الناس و كان هذا القول منهن مكرا:-

ليس المقصود به مجرد اللوم لها و القدح فيها

و إنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذى فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز و تريهن إياه ليعذرنها و لهذا سماه مكرا﴿٣٠﴾ فقال:-

فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

(فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ)تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

(وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا)محلا مهيأ بأنواع الفرش و الوسائد و ما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة و كان في جملة ما أتت به و أحضرته فى تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين إما أترج أو غيره

(وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا)ليقطعن فيها ذلك الطعام

(وَقَالَتِ)ليوسف:-(ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ)فى حالة جماله و بهائه.

(فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ)أعظمنه فى صدورهن و رأين منظرا فائقا لم يشاهدن مثله

(وَقَطَّعۡنَ)جرحن(و ليس بمعنى بترنّها)لأن قطع العظم لا يكون إلا بشدة و محال أن يسهو أحد عنها) من الدهش(أَيۡدِيَهُنَّ)بتلك السكاكين اللاتى معهن(وَقُلۡنَ حَٰشَ)تنزيها(لِلَّهِ)

(مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ)

و ذلك أن يوسف أعطى من الجمال الفائق و النور و البهاء ما كان به آية للناظرين و عبرة للمتأملين.

*مسلم 162-قال النبيﷺ فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ 31

(قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ)

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر و أعجبهن غاية و ظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير–أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك و مبينة لحبه الشديد غير مبالية

و لأن اللوم انقطع عنها من النسوة:–

(وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ)

امتنع و هي مقيمة على مراودته لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقا و محبة و شوقا لوصاله و توقا.

*و لهذا قالت له بحضرتهن:–(وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ)به(لَيُسۡجَنَنَّ)مستقبلا لَيعاقَبَنَّ بدخول السجن

(وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ)الأذلاء

*لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه فعند ذلك اعتصم يوسف بربه و استعان به على كيدهن32

(قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ)

و هذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف فى مطاوعة سيدته و جعلن يكدنه فى ذلك.

فاستحب السجن و العذاب الدنيوى على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد

(وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ)أمل(إِلَيۡهِنَّ)فإنى ضعيف عاجز إن لم تدفع عنى السوء

(وَأَكُن)إن صبوت إليهن(مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ)

فإن هذا جهل لأنه آثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات و شهوات متنوعات فى جنات النعيم

و من آثر هذا على هذا فمن أجهل منه؟!!

فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين و أعظم اللذتين و يؤثر ما كان محمود العاقبة.

*البخارى660-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ....وَ رَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَ جَمَالٍ فَقَالَ:-
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

من الفوائد:-

1–أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلى بين أمرين –

1–إما فعل معصية

2–و إما عقوبة دنيوية–أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة فى الدنيا و الآخرة

و لهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار.

2–أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله و يحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية و يتبرأ من حوله و قوته

لقول يوسف عليه السلام:-(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)33

(فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ)حين دعاه

(فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ)

فلم تزل تراوده و تستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى أيسها و صرف الله عنه كيدها

(إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ)لدعاء الداعى

(ٱلۡعَلِيمُ)بنيته الصالحة و بنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته و لطفه.

فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة و المحنة الشديدة

و أما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر و بان و صار الناس فيها بين عاذر و لائم و قادح34

(ثُمَّ بَدَا)ظهر(لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ)الدالة على براءته

(لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ)لينقطع بذلك الخبر و يتناساه الناس

فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر و يشاع مع وجود أسبابه فإذا عدمت أسبابه نسى فرأوا أن هذا مصلحة لهم

فأدخلوه فى السجن35

يوسف و السجن و رؤيا الملك 36-53

(و) لما دخل يوسف السجن كان فى جملة من(وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ)

شابان ساقى الملك و الآخر :خبازه.فرأى كل واحد منهما رؤيا فقصها على يوسف ليعبرها

*وَ كَانَ يُوسُفُ عليه السلام قَدِ اشْتُهِرَ فِي السِّجْنِ بِالْجُودِ وَ الْأَمَانَةِ وَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَ حُسْنِ السَّمْتِ وَ كَثْرَةِ الْعِبَادَةِ عليه السلام وَ مَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ وَ الْإِحْسَانِ إِلَى أهل السجن و عيادة مَرْضَاهُمْ وَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ.

فـــ(قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ)يعنى عنبا

(وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا)و ذلك الخبز

(تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ)بتفسيره و ما يؤول إليه أمرهما

(إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)

من أهل الإحسان إلى الخلق فأحسن إلينا فى تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا فتوسلا ليوسف بإحسانه(٣٦)

فـــ(قَالَ)لهما مجيبا لطلبتهما:-

(لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ)

أى: فلتطمئن قلوبكما فإنى سأبادر إلى تعبير رؤياكما فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما

(إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ)

و لعل يوسف عليه السلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان فى هذه الحال التى بدت حاجتهما إليه ليكون أنجع لدعوته و أقبل لهما.

ثم قال:(ذَٰلِكُمَا)التعبير الذى سأعبره لكما

(مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ)أى: هذا من علم الله علمنيه و أحسن إلىَّ به

و ذلك (إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ)

و الترك كما يكون للداخل فى شىء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلا.

فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم٣٧

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

(وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ)ثم فسر تلك الملة بقوله:–

(مَا كَانَ لَنَآ)أي:ما ينبغي و لا يليق بنا

(أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ)بل نفرد الله بالتوحيد و نخلص له الدين و العبادة.

(ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ)أي:هذا من أفضل مننه و إحسانه و فضله علينا و على من هداه الله كما هدانا فإنه لا أفضل من منة الله على العباد بالإسلام و الدين القويم

فمن قبله و انقاد له فهو حظه و قد حصل له أكبر النعم و أجل الفضائل.

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ)

فلذلك تأتيهم المنة و الإحسان فلا يقبلونها و لا يقومون لله بحقه

و فى هذا من الترغيب للطريق التى هو عليها ما لا يخفى فإن الفتيين لما تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم و الإجلال–و أنه محسن معلم–ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله و إحسانه حيث منَّ عليَّ بترك الشرك و باتباع ملة آبائه فبهذا وصلت إلى ما رأيتما فينبغى لكما أن تسلكا ما سلكت38

*أيْ:لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ بَلْ{بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}[إبراهيم: 28]

ثم صرح لهما بالدعوة فقال:–

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ)عاجزة ضعيفة لا تنفع و لا تضر و لا تعطى و لا تمنع

و هم(مُّتَفَرِّقُونَ)

ما بين أشجار و أحجار و ملائكة و أموات و غير ذلك من أنواع المعبودات التى يتخذها المشركون

أتلك(خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ)الذى له صفات الكمال

(ٱلْوَٰحِدُ)فى ذاته و صفاته و أفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك.

(ٱلْقَهَّارُ)الذى انقادت الأشياء لقهره و سلطانه فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

و من المعلوم أن من هذا شأنه و وصفه خير من الآلهة المتفرقة التى هى مجرد أسماء لا كمال لها و لا أفعال لديها39

و لهذا قال:–(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم)

أى:كسوتموها أسماء سميتموها آلهة و هى لا شىء و لا فيها من صفات الألوهية شىء

(مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ)

بل أنزل الله السلطان بالنهى عن عبادتها و بيان بطلانها و إذا لم ينزل الله بها سلطانا لم يكن طريق و لا وسيلة و لا دليل لها.

(إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)لأن الحكم لله وحده فهو الذى يأمر و ينهى و يشرع الشرائع و يسن الأحكام

(أَمَرَ)و هو الذى أمركم

(أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ)

المستقيم الموصل إلى كل خير و ما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة بل معوجة توصل إلى كل شر.

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

حقائق الأشياء و إلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له و بين الشرك به أظهر الأشياء و أبينها.

*و لكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك فيوسف عليه السلام دعا صاحبى السجن لعبادة الله وحده و إخلاص الدين له

فيحتمل أنهما استجابا و انقادا فتمت عليهما النعمة

و يحتمل أنهما لم يزالا على شركهما فتمت عليهما–بذلك–الحجة40

ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعد ما عدهما ذلك فقال:–

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا)و هو الذى رأى أنه يعصر خمرا فإنه يخرج من السجن

(فَيَسْقِى رَبَّهُۥ)سيده الذى كان يخدمه(خَمْرًا)و ذلك مستلزم لخروجه من السجن

(وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ)و هو:-الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

(فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ)

فإنه عَبَّر عن الخبز الذى تأكله الطير بلحم رأسه و شحمه و ما فيه من المخ و أنه لا يقبر و يستر عن الطيور بل يصلب و يجعل في محل تتمكن الطيور من أكله

ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذى تأوله لهما أنه لا بد من وقوعه فقال:-

(قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ)تسألان عن تعبيره و تفسيره

من الفوائد:-

1-أنه كما على العبد عبودية لله فى الرخاء فعليه عبودية له فى الشدة فـ« يوسف »عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله فلما دخل السجن استمر على ذلك و دعا الفتيين إلى التوحيد و نهاهما عن الشرك

و من فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حيث ظنا فيه الظن الحسن و قالا له:-(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) و أتياه لأن يعبر لهما رؤياهما فرآهما متشوفين لتعبيرها عنده -

رأى ذلك فرصة فانتهزها فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده و أقرب لحصول مطلوبه و بين لهما أولا أن الذي أوصله إلى الحال التى رأياه فيها من الكمال و العلم إيمانه و توحيده و تركه ملة من لا يؤمن بالله و اليوم الآخر و هذا دعاء لهما بالحال

ثم دعاهما بالمقال و بين فساد الشرك و برهن عليه و حقيقة التوحيد و برهن عليه.

2-أنه يبدأ بالأهم فالأهم و أنه إذا سئل المفتى و كان السائل حاجته فى غير سؤاله أشد أنه ينبغى له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله فإن هذا علامة على نصح المعلم و فطنته و حسن إرشاده و تعليمه

فإن يوسف-لما سأله الفتيان عن الرؤيا-قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له

3- أنه ينبغي و يتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام فى تعليمه و أن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع و أن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم

فإن يوسف عليه السلام قد قال و وصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره و نسى

فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى و جاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف و لا وبخه لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

4-أنه ينبغى للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله و يرشده إلى الطريق التى ينتفع بها فى دينه و دنياه فإن هذا من كمال نصحه و فطنته و حسن إرشاده فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك بل دلهم-مع ذلك-على ما يصنعون فى تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع و كثرة جبايته

5- فضيلة العلم:-علم الأحكام و الشرع و علم تعبير الرؤيا و علم التدبير و التربية و أنه أفضل من الصورة الظاهرة و لو بلغت في الحسن جمال يوسف فإن يوسف-بسبب جماله-حصلت له تلك المحنة و السجن و بسبب علمه حصل له العز و الرفعة والتمكين في الأرض فإن كل خير في الدنيا و الآخرة من آثار العلم و موجباته.

6-أن علم التعبير من العلوم الشرعية و أنه يثاب الإنسان على تعلمه و تعليمه و أن تعبير المرائى داخل فى الفتوى لقوله للفتيين:-(قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)و قال الملك:(أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ)

و قال الفتى ليوسف:-(أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ)الآيات فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم﴿٤١﴾

(وَقَالَ)يوسف عليه السلام(لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا)الذى رأى أنه يعصر خمرا:-

(ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ)اذكر له شأنى و قصتى لعله يرقُّ لى فيخرجنى مما أنا فيه

(فَأَنسَىٰهُ)فأنسى(ٱلشَّيْطَٰنُ)ذلك الناجى(ذِكْرَ رَبِّهِۦ)تعالى و ذكر ما يقرب إليه

و من جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذى يستحق أن يجازى بأتم الإحسان و ذلك ليتم الله أمره و قضاءه.

(فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)و البضع من الثلاث إلى التسع و لهذا قيل: إنه لبث سبع سنين

من الفوائد:-

أن من وقع فى مكروه و شدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله

و أن هذا لا يكون شكوى للمخلوق فإن هذا من الأمور العادية التى جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض

و لهذا قال يوسف للذى ظن أنه ناج من الفتيين:-(اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)﴿٤٢﴾

*و لما أراد الله أن يتم أمره و يأذن بإخراج يوسف من السجن قدر لذلك سببا لإخراج يوسف و ارتفاع شأنه و إعلاء قدره و هو رؤيا الملك

*لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة الذى تأويلها يتناول جميع الأمة ليكون تأويلها على يد يوسف فيظهر من فضله و يبين من علمه ما يكون له رفعة فى الدارين

و من التقادير المناسبة أن الملك الذى ترجع إليه أمور الرعية هو الذى رآها لارتباط مصالحها به.

و ذلك أنه رأى رؤيا هالته فجمع لها علماء قومه و ذوى الرأى منهم

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ)من البقرات

(عِجَافٌ)وهذا من العجب أن السبع العجاف الهزيلات اللاتى سقطت قوتهن يأكلن السبع السمان التى كنَّ نهاية فى القوة.

(وَ)رأيت(وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ)يأكلهن سبع سنبلات

(وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ)يا أيها السادة و الكبراء(أَفۡتُونِي)أخبرونى(فِي رُءۡيَٰيَ)عن هذه الرؤيا لأن تعبير الجميع واحد و تأويله شيء واحد(إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ)تُفَسِّرون فتحيروا و لم يعرفوا لها وجها(٤٣)

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

و (قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ)أَخْلَاطُ(أَحۡلَٰمٖۖ)اقْتَضَتْ رُؤْيَاكَ هَذِهِ

أي أحلام لا حاصل لها و لا لها تأويل.

و هذا جزم منهم بما لا يعلمون و تعذر منهم بما ليس بعذر ثم قالوا:–

(وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ)

لا نعبر إلا الرؤيا و أما الأحلام التى هى من الشيطان أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل و الجزم بأنها أضغات أحلام و الإعجاب بالنفس بحيث إنهم لم يقولوا:–

لا نعلم تأويلها و هذا من الأمور التى لا تنبغى لأهل الدين و الحجا

و هذا أيضا من لطف الله بيوسف عليه السلام فإنه لو عبرها ابتداء–قبل أن يعرضها على الملأ من قومه و علمائهم فيعجزوا عنها – لم يكن لها ذلك الموقع

و لكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب و كان الملك مهتما لها غاية فعبرها يوسف–وقعت عندهم موقعا عظيما

و هذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا.

ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء فحصل بذلك زيادة فضله

*و كما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺفى القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام فيعتذرون عنها ثم يأتون محمدا ﷺ فيقول:–

«أنا لها أنا لها»فيشفع فى جميع الخلق و ينال ذلك المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون و الآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه و دقَّت في إيصاله البر و الإحسان إلى خواص أصفيائه و أوليائه44

(وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا)من الفتيين و هو:–الذى رأى أنه يعصر خمرا و هو الذى أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه

(وَٱدَّكَرَ)تذكر يوسف(بَعۡدَ أُمَّةٍ)مدة ما نسى من أمر يوسف و ما جرى له فى تعبيره لرؤياهما و ما وصاه به و علم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين

فقال:–(أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ)إلى يوسف لأسأله عنها45

فأرسلوه فجاء إليه و لم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه و أجابه عن ذلك فقال:–

(يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ)كثير الصدق فى أقواله و أفعاله.

(أَفۡتِنَا فِى سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ)

(لَّعَلِّىٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ)إلى الملك و أصحابه فأخبرهم

(لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ)ليعلموا تأويل ما سألتك عنه و ليعلموا مكانتك و فضلك.

فإنهم متشوقون لتعبيرها و قد أهمتهم. فعبر يوسف :–

السبع البقرات السمان و السبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات

*و السبع البقرات العجاف و السبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مجدبات

و لعل وجه ذلك–و الله أعلم–أن الخصب و الجدب لما كان الحرث مبنيا عليه و أنه إذا حصل الخصب قويت الزروع و الحروث و حسن منظرها و كثرت غلالها و الجدب بالعكس من ذلك.

*و كانت البقر هى التى تحرث عليها الأرض و تسقى عليها الحروث فى الغالب

*و السنبلات هى أعظم الأقوات و أفضلها عبرها بذلك لوجود المناسبة فجمع لهم فى تأويلها بين التعبير و الإشارة لما يفعلونه و يستعدون به من التدبير فى سنى الخصب إلى سنى الجدب 46

فـ(قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبًا)متتابعات.

(فَمَا حَصَدتُّمۡ)من تلك الزروع

(فَذَرُوهُ)اتركوه(فِى سُنۢبُلِهِۦٓ)لأنه أبقى له و أبعد من الالتفات إليه (ليتمَّ حفظه من التسوُّس)

(إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ)

دبروا أيضا أكلكم فى هذه السنين الخصبة و ليكن قليلا ليكثر ما تدخرون و يعظم نفعه و وقعه47

(ثُمَّ يَأۡتِى مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ)بعد تلك السنين السبع المخصبات.

(سَبۡعٞ شِدَادٞ)مجدبات جدا

(يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ)أى:يأكلن جميع ما ادخرتموه و لو كان كثيرا.

(إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ)تحفظونه و تدَّخرونه ليكون بذورًا للزراعة–تمنعونه من التقديم لهن48

(ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ)بعد السبع الشداد

(عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ)فيه تكثر الأمطار و السيول و تكثر الغلات و تزيد على أقواتهم

(وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ)حتى إنهم يعصرون العنب و نحوه زيادة على أكلهم

و لعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها يزول به شدتها.

و من المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات إلا بعام مخصب جدا و إلا لما كان للتقدير فائدة49

فلما رجع الرسول إلى الملك و الناس و أخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا عجبوا من ذلك و فرحوا بها أشد الفرح.

(وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ)لمن عنده(ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ)بيوسف ﷺ بأن يخرجوه من السجن و يحضروه إليه

(فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ)و أمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة و هذا من صبره و عقله و رأيه التام.

فـــ (قَالَ)للرسول:–(ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ)يعنى به الملك.

(فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ)اسأله ما شأنهن و قصتهن فإن أمرهن ظاهر متضح لتظهر الحقيقة للجميع و تتضح براءتى

(إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ)بصنيعهن و أفعالهن لا يخفى عليه شىء من ذلك

من الفوائد:-

*لا يلام الإنسان على السعى فى دفع التهمة عن نفسه و طلب البراءة لها بل يُحْمَد على ذلك كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتى قطعن أيديهن 50

*فأحضرهن الملك و(قَالَ):–(مَا خَطۡبُكُنَّ)شأنكن

(إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ)فهل رأيتن منه ما يريب؟فبرَّأنه

و (قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ)

أى:لا قليل و لا كثير فحينئذ زال السبب الذى تنبنى عليه التهمة و لم يبق إلا ما عند امرأة العزيز

فـ(قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ)تمحض و تبين

(ٱلۡحَقُّ)بعد ما كنا ندخل معه من السوء و التهمة ما أوجب له السجن

(أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ)فأنا التى حاولت فتنته بإغرائه فامتنع

(وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)فى أقواله و براءته51

(ذَٰلِكَ)الإقرار الذى أقررت أنى راودت يوسف

(لِيَعۡلَمَ)يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أى: –ليعلم أنى حين أقررت أنى راودت يوسف

(أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ)لم يجر منِّى إلا مجرد المراودة و لم أفسد عليه فراشه

*و يحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أنى أنا الذى راودته و أنه صادق أنى لم أخنه فى حال غيبته عنى.

(وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ)فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته و مكره على نفسه و لا بد أن يتبين أمره.

*البخارى3372 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ:{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[البقرة: 260]
وَ يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَ لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ"
*أحمد 8554 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:{فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: 50]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«لَوْ كُنْتُ أَنَا لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَ مَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ»52